رواية

كارلوس ماريا دومينغيث

بيت الورق

ترجمة:
محمد الفولي

Telegram:
@XEPUB

يسرّنا أن نُهدي إليكم هذا الكتاب/الرواية بصيغة نصّية حصريًا على قناتنا.

وندعوكم للانضمام إلى قناتنا عبر هذا الرابط لتنهلوا من إصداراتنا النصية السابقة، ولتكونوا أوّل من يتابع كل ما هو جديد من إصداراتنا النصّية الحصريّة القادمة.

https://t.me/xepub

*

القناة الاحتياطية:

https://t.me/xepub1

Author: Carlos María Domínguez

La casa de papel

© Copyright

Translated from Spanish by:
Mohammed Al-Fawly

Book Design:
Sarwar Murad

ترجمها عن الإسبانية:
محمد الفولي

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

الطبعة الأولى | سبتمبر 2023
ISBN: 978-9921-712-70-4
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
1459-2023

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

دار الخان للنشر والتوزيع

+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw

info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

كارلوس ماريا دومينغيث

بَيْتُ الوَرَقْ

رواية

دار الخان

ترجمة

محمد الفولي

واحد

في ذكرى جوزيف العظيم

في ربيع ١٩٩٨، اشترت بلوما لينون نسخة قديمة من كتاب "قصائد إيميلي ديكنسون" من إحدى مكتبات سوهو، وحين وصلت إلى القصيدة الثانية، قرب أول ناصية، صدمتها سيارة.

تُغير الكتب حياة الأشخاص. قرأ البعض "نمر ماليزيا"[1] وصاروا أساتذة أدب في جامعات بعيدة، وقاد "سدهارتا"[2] عشرات الآلاف من الشباب نحو الهندوسية، وجعلهم هيمينغواي رياضيين، وبدّل دوما أحوال آلاف النساء، اللاتي نجا عدد ليس قليلًا منهن من الانتحار بسبب أدلة الطهي التعليمية. أما بالنسبة إلى بلوما، فكانت ضحيتها.

لكنها ليست ضحيتها الوحيدة، فأستاذ اللغات القديمة ليونارد وود أصيب بشلل نصفي حين سقطت خمسة أجزاء من "الموسوعة البريطانية" من فوق أحد أرفف مكتبته وارتطمت برأسه، فيما انكسرت ساق صديقي ريتشارد حين وقع من فوق السلم وهو يحاول أن يصل إلى نسخة من "آبشالوم! آبشالوم" لويليام فوكنر موضوعة بشكل سيئ فوق أحد الأرفف، وأصيب صديق آخر لي من بوينس آيرس بالسلّ في أقبية أحد الأرشيفات العمومية، بل وعرفت كلبًا تشيليًا مات من سوء الهضم حين التهم ذات مساء انتابه فيه الهياج صفحات "الإخوة كارامازف".

لطالما قالت لي جدتي كلما رأتني أقرأ: "كف عن هذا، فالكتب خطيرة". آمنتُ طيلة سنوات بجهلها، لكن الزمن أثبت لي رجاحة عقلها الألماني.

حضر عدد كبير من مسؤولي جامعة كمبريدج جنازة بلوما. خصص لها البروفيسور روبرت لوريل ضمن المراسم الجنائزية خطابًا وداعيًا مهيبًا، إلى درجة أنه نُشر لاحقًا في كُتيب من فرط جدارته الأكاديمية. أبرزَ مسيرتها الجامعية اللامعة، والحساسية والذكاء اللذين ميزاها طيلة خمسة وأربعين عامًا، وفي صلب الخطاب أوضح مساهماتها الحاسمة في البحث عن الأثر

الأنغلوسكسوني في الآداب الأمريكية اللاتينية، لكنه أنهاه بعبارة مثيرة للجدل حين قال: "كرست بلوما حياتها للأدب، من دون أن تتخيل أنه قد يختطفها من هذا العالم". واجه من اتهموا لوريل بإفساد هذه التحفة دفاعًا مستميتًا من مساعديه. بعدئذٍ بعدة أيام سمعتُ، وأنا في بيت صديقتي آني، جون بيرنون يقول لمجموعة من تلاميذ لوريل:

- قتلتها سيارة، لا القصيدة.

تجادل فتيان:

- ما من شيء يقع خارج مجازها.

وقالت فتاة يهودية بصوتٍ حاسم:

- يحق لأي شخص اختيار المجاز الذي يودُّه.

أجابها العجوز بنبرته التصالحية الزائفة التي منحته شهرته بوصفه شخصًا مُتهكِّمًا داخل الحرم الجامعي الذي كان في حالة فوران بسبب قُرب مقابلات الدراسات العليا التي سيتنافس فيها مع لوريل:

- حسنًا، وأن يصنع أدبًا سيئًا أيضًا. في المدينة، ثمة مليون مصد سيارة سائب قادر على أن يُثبت لكم ما قد يقدر مجرد اسم جيد على فعله.

انتشرت المجادلات في الجامعة بسبب الجملة الشهيرة، بل وانعقدت مسابقة طلابية تحت عنوان "العلاقات بين الواقع واللغة". أُحصيت الخطوات التي قطعتْها فوق رصيف سوهو وأبيات قصائد السوناتا التي يُفترض أنها تمكنت من قراءتها واحتُسبت سرعة السيارة، كما جرت نقاشات محمومة حول سيميائية الحركة المرورية في لندن، والإطار الثقافي والحضري واللغوي للثانية التي انهار فيها الأدب والعالم فوق جسد العزيزة بلوما.

تحتم عليّ أن أحل محلَّها في القسم وأن أشغل مكتبها وأن أضطلع بالفصول التي تُدرِّسها، من دون أن يُغريني مسار المحادثات قط.

ذات صباح تلقيت مظروفًا موجهًا إلى زميلتي الراحلة. ظهرت عليه طوابع بريدية من أوروغواي، ولولا غياب المُرسِل، لحسبته واحدًا من النسخ التي اعتاد بعض المؤلفين أن يبعثوها إليها، على أمل أن تكتب عنها مراجعة

في مجلة أكاديمية. لم تفعل بلوما هذا الأمر قط إلا إن كان المؤلف مشهورًا بما يكفي كي تنتزع منه فائدة ما. اعتادت أن تطلب مني أن أضعها في مستودع المكتبة، ولكن ليس قبل الكتابة فوق غلافها "UTC" اختصارًا لـ"Unlikely To Consult" (من غير المرجح أن يُطلع عليه) ما يعني حكمًا بنفي هذه النسخ إلى الأبد. كان بالفعل كتابًا، لكن طبيعته ليست كما توقعتها. ما أن فتحت المظروف، حتى شعرت بتوجس غريزي. توجهت إلى باب مكتبي وأغلقته، ثم عدت لأتأمل النسخة القديمة المهترئة لكتاب "مسار الظل" لجوزيف كونراد. علمت سلفًا أن بلوما كانت تجهز بحثًا عن جوزيف كونراد، لكن المدهش في الأمر أن قشرة قذرة قد التصقت بالغلافين الأمامي والخلفي للكتاب، فيما ظهرت على حواف الصفحات جزئيات صغيرة من الأسمنت انسل منها تراب ناعم فوق خشب المكتب المُلمّع.

أخرجت منديلًا وأمسكت حجرًا صغيرًا وأنا مضطرب. إنه أسمنت "بورتلاند" من دون شك؛ بقايا مزيج لا بُد أنها قد التصقت بالكتاب بصلابة أكبر فيما سبق، قبل محاولة إزالتها مع سبق الإصرار.

لم يحتو المظروف على رسالة، وإنما فقط الكتاب المهترئ الذي لم أكن قد حسمت قراري بعد بخصوص رفعه بين يديّ. حين قلبت الغلاف بأصابعي، اكتشفت إهداء كتبته بلوما. إنه خطها المكتوب بحبر أخضر. خط متلاصق ومثالي، ككل ما يخصها. لم يشق عليّ فك شفرته: "إلى كارلوس، هذه الرواية التي رافقتني من مطار إلى آخر، في ذكرى أيام مونتيرّي المجنونة. آسفة لأنني، كما حذرتك منذ البداية، ملعونة نوعًا ما. لن تفعل أبدًا شيئًا قد يقدر على إدهاشي. ٨ يونيو ١٩٩٦".

عرفت شقة بلوما، وطعام إفقاد الوزن الذي احتفظت به في الثلاجة ورائحة أغطية فراشها، وعطر ملابسها الداخلية، إذ استخدمنا فراشها أنا واثنان من نواب رئاسة القسم وأحد الطلاب الذي تسلل إلى القائمة. علمت أيضًا، مثل بقية الآخرين، بشأن سفرها لحضور مؤتمر في مونتيرّي[3]، حيث لا بد أنها قد انخرطت في واحدة من تلك العلاقات العابرة التي اعتادت أن تُدلل بها نفسها للحفاظ على خيلائها، الذي شعرت بأنه مُهدد بهجران الشباب وزوجيها السابقين وحلم الإبحار في نهر ماكوندو على زورق؛ ذلك الهوس

الذي ورثته من "مائة عام من العزلة". لكن لماذا عاد الكتاب بعد مرور عام إلى كمبريدج؟ وأين كان طيلة هذه الفترة؟ وما الذي تحتم على بلوما أن تقرأه من بين بقايا الأسمنت؟

سبق لي أن أمسكت بين يديّ بكتاب قصص العرابات الجنيات الأيرلندية الرائعة "Irish Fairy and Folk Tales" بمقدمة ويليام باتلر يتس والرسوم الأصلية لجيمس تورانس، و"المراسلات غير المنشورة للماركيز دو ساد وأقاربه وأصدقائه". سبق لي أيضًا أن أمسكت بيديّ لدقائق قليلة عددًا من بواكير الكتب المطبوعة، لكن لم يتمكن أيٌّ منها من إرباكي مثل هذه النسخة ذات الغلاف الورقي التي طالبت صفحاتها المتقوسة، التي نالت منها الرطوبة، بأن تُقرأ.

وضعت الكتاب مرة ثانية داخل المظروف، ومن بعده في حقيبة يدي، ثم نظفت الغبار من فوق المكتب بحرص لصّ.

راجعت طيلة أسبوع أرشيفات بلوما بحثًا عن العناوين التي يوزعونها عادة في مؤتمرات النقاد والكتاب. عثرت على قائمة في حافظة ملفات حمراء قاتمة عنوانها "ذكريات مونتيرّي". ثمة كاتبان سافرا من أوروغواي. لم يدع أي منهما كارلوس، لكنني سجلت العنوان والبريد الإلكتروني الخاص بكلٍ منهما. ظللت أقول لنفسي إنني لا يجب عليّ أن أتورط في أمور حميمية تخص بلوما، وفي نفس الوقت، إن كتابًا بمثل هذه الغرابة وانعدام جدواه بالنسبة إليّ يستحق أن يعود إلى من أرسله، بغض النظر عن فحوى رسالة الأسمنت التي لم يكن أحد سيقدر على فهمها سوى بلوما.

وضعت الكتاب فوق مسند قراءة على طاولة مكتبي وأعترف أنني نظرت إليه بجزع حائر طيلة بضع ليال. بدا الكتاب كأنه يخلُّ بنظام الغرفة، كما قد يفعل متشرد في حفل داخل قصر إمبراطوري، ربما لأن آليس لا تترك ذرة من الغبار فوق أعلى أرفف مكتبتي، وهي مسألة يستحيل التفكير فيها أصلًا إن تعلَّق الأمر بالسجادة أو أي من الطاولات. نُشر الكتاب في نوفمبر ١٩٤٦ بواسطة دار "إيميثيه" في بوينس آيرس، وتمكنت مع بعض البحث من معرفة أن هذه الطبعة كانت جزءًا من مجموعة "باب العاج" التي أشرف

عليها كل من بورخيس وبيوي كاساريس. إن نظر المرء، فقد يتمكن أن يلمح من تحت طبقة الكلس أو الأسمنت رسمًا لقارب، وشيئًا يبدو كالأسماك، لكنني لم أتيقن من الأمر.

وضعت آليس خرقة في الأيام التالية تحت مسند القراءة لتفادي أن يتسخ الزجاج بالغبار، وغيرتها في كل صباح بتلك الرزانة الصامتة التي كسبت بها احترامي الكامل منذ يومها الأول في العمل.

لم تفدني الرسائل الأولى التي وصلت من نويبو ليون بشيء. أرسلوا إليّ قائمة مشاركين كانت لديّ بالفعل، مع برنامج الأنشطة وخريطة للمدينة. مع ذلك، أبلغني أحد الكاتبين الأوروغوايانيين بأن مواطنًا له من محبي الكُتب اسمه كارلوس براور قد شارك في المؤتمر بصفته مستمعًا. قال أيضًا إنه قد شاهده هو وبلوما يغادران عشاء، بعد رقصة "بايناتو رائعة"، وعليهما آثار الثمل من التيكيلا، وأضاف: "أطلب منك التحفظ، لأن في الأمر إفشاءً لسر".

تخيلتها ترقص في فناء كولونيالي، على ضوء الشموع، في ليلة قائظة ومتقلبة تمامًا ككل ليالي المكسيك، وهي عازمة على إثبات أنها ليست خرقاء مع أنها إنجليزية، وأنها ليست حمقاء على الرغم من جديتها، وأنها مهندمة ومثيرة في الوقت ذاته. تراءت لي بعدئذٍ وهي تتعثر في سيرها في شارع مرصوف بالحجارة، فيما تمسك بيد الرجل الذي يقودها، ربما بسعادة، فيما يتلاشى ظلهما من بين الممرات المسقوفة. قال لي الكاتب إن براور قد انتقل إلى روتشا، وهي مقاطعة تقع على المحيط الأطلسي، وإنه لا يعرف عنه شيئًا في الوقت الحالي، لكنه قد يستقصي الأمر عبر تواصله مع صديق، إن منحته بضعة أيام.

خمسة عشر عامًا وقت طويل، وهذا هو الوقت الذي مر عليّ وأنا مقيم في إنجلترا. اعتدت أن أعود كل عامين إلى بوينس آيرس لزيارة أمي وإعادة بناء صلاتي مع أصدقاء الماضي، وكي أغطس في مياه لغة نهر "لا بلاتا" وسط أهالي العاصمة من كل شكل ولون، لكنني لم أعرف أوروغواي حق المعرفة. احتفظت فقط بذكرى مبهمة لرحلة على متن عبّارة بخارية اجتازت ليل مونتفيديو، وأنا عمري خمس سنوات وأبي يحملني بين ذراعيه. في تلك

المرة، دعاني صديق كي أقضي بضعة أيام في بونتا ديل إيستي. لم أزر روتشا، وكان كل ما لديّ مجرد فكرة ملتبسة عن موقعها.

لم تبد لي سواحل الجنوب الأوروغوياني كواجهة سيارة زجاجية متسخة في يوم ممطر. ربما السماء الممتدة وضراوة الرمال والرياح، إلى جانب قصة كارلوس براور، هو ما ربط داخل عقلي بين سواحل لا روتشا وواجهات السيارات والتوجس المرعب الذي ينتابني كلما امتدح أي شخص مكتباتي. أُهدي طلابي سنويًا ما لا يقل عن خمسين كتابًا، لكنني لا أقدر على التوقف عن ملء أرفف جديدة أو صف مزدوج آخر، ولهذا تظل الكتب تتقدم عبر المنزل في صمت وبراءة، وأستمر أنا في كوني عاجزًا عن كبحها.

تساءلت عدة مرات لماذا أحتفظ بكتب لن ألجأ إليها على الأرجح إلا في مستقبل بعيد أو، لماذا أحتفظ أيضًا بعناوين بعيدة عن اهتماماتي التقليدية؛ تلك التي قرأتها مرة واحدة ولن تُفتح صفحاتها إلا بعد مرور سنوات كثيرة، بل وربما لن تُفتح أبدًا! لكن كيف لي مثلًا أن أتخلص من "نداء الغابة" من دون أن أزيل حجر أساس في طفولتي؟ أو من "زوربا" التي دمغت مراهقتي بالدموع؟ أو "الساعة الخامسة والعشرون"؟ أو أيًا من الكتب الأخرى المنفية منذ سنوات في أعلى الأرفف من دون مساس وهي صامتة رغم كل شيء، وسط الوفاء المتبادل الذي يمنحه كلٌّ منا إلى الآخر؟

أحيانًا يغدو التخلص من الكتب أصعب من الحصول عليها، إذ تنتسب إلينا عبر معاهدة قوامها العوز والنسيان، كأنها شهود على إحدى لحظات حياتنا التي لن نعود إليها، لكننا نظل نحسبها جزءًا منا، ما دامت هناك. رأيت أشخاصًا كثيرين يسجلون تواريخ قراءاتهم باليوم والشهر والعام، بل ومنهم من صمّم جدولًا سريًا لها. يكتب آخرون أسماءهم على الصفحات الأولى للكتب قبل إعارتها، بل ويدوّنون في دفتر اسم المستعير وتاريخ الاستعارة. شاهدت كتبًا ضخمة مختومة، ككتب المكتبات العامة، وأخرى قد انزلقت منها بطاقات تعريفية بصاحبها. لا يريد أحد أن يضيع منه كتابه. قد نفضل أن نفقد خاتمًا أو ساعة أو مظلة، على فقدان كتاب لن نقرأ صفحاته مرة ثانية، لأن هذا الصفحات تحتفظ بين طياتها وفي الصدى الجهوري لعنوانها، بإحساس قديم، وربما ضائع.

لكن في النهاية، حجم المكتبة فعلًا مهم، ولهذا يعرض المرء تحت أعذار واهية وبتواضع زائف كُتبه كأنها مخ كبير مفتوح. عرفت أستاذًا في اللغات القديمة تعمد أن يستغرق وقتًا طويلًا في تحضير القهوة في مطبخه، كي يتأمل ضيفه العناوين الموجودة فوق أرففه، وكان لا يخرج إلى الصالة مع صينية الضيافة وعلى وجهه ابتسامة رضا، إلا حين يتحقق من أن فعلته قد حققت الأثر المرجو.

نتلصص نحن معشر القراء على مكتبات أصدقائنا، حتى وإن فعلناها بغرض التسلية فحسب. نفعل هذا أحيانًا لتفَقّد كتاب لا نملكه ونود أن نقرأه، وفي مرات أخرى لنعرف ماهية الطعام الذي يأكله الحيوان الموجود أمامنا، فقد نترك أحيانًا زميلًا جالسًا في صالتنا، وحين نعود نجده لا يزال واقفًا وهو يتشمم كتبنا.

لكن تحين لحظة تجتاز فيها الكتب حدًّا خفيًا يفرض نفسه بسبب العدد، فيتحول الاعتزاز القديم إلى حمل مزعج لأن الحيز سيمثل مشكلة على الدوام. حين وصلت إلى يديّ نسخة "مسار الظل"، كنت منشغلًا بالتفكير في أي مكان قد أُركب رفًا جديدًا. منذ تلك اللحظة صارت هذه النسخة تحذيرًا أبديًّا بالنسبة إليّ.

مع ذلك، أبعدت فترة الامتحانات الكتاب عن اهتماماتي. ظل فوق مسند القراءة، فيما انشغلت بمحاضراتي ومحاضرات بلوما. اختنقت تلك الأيام بجبال من الأبحاث والفروض العملية، لكن حين بدأت عطلة الصيف، قررت أن أقدم موعد زيارتي لأمي، وأن أكافئ نفسي بفكرة إعادة النسخة وأن أبلغ الرجل الذي لم يعن آنذاك شيئًا بالنسبة إليّ بالنهاية التعيسة لبلوما، مع أنني أردت أيضًا -وهو أمر لن أنكره- أن أتعرف إلى سره.

اثنان

بعدئذٍ بأسبوع وصلت إلى بوينس آيرس. وجدتها أكثر حداثة وامتلاء بالواجهات الزجاجية؛ ووجدت أمي أكثر انهزامًا -كحال أصدقائي- كأن الرئة التي تتنفس منها المدينة الهواء اللازم لنموها مع حركتها المرورية المدوخة وأضوائها وشاشات حاناتها، موجودة في فتور همة أهاليها.

أصبحت جادة "سانتا في"، وليس "كوريينتس"، نقطة الجذب الرئيسية، فصار فيها الآن مكتبات ضخمة وفاخرة، ومتاجر كبرى تبيع الأسطوانات المدمجة والمعدات الصوتية والكتب، وبالمثل محلات لبيع السكاكر ودور عرض سينمائية ومسارح يصطف عند أبوابها الشحاذون.

يسير أهالي العاصمة وهم يلصقون هواتفهم المحمولة بآذانهم، ويقودون سياراتهم وهم يسندونها بين أكتافهم وأذانهم. صاروا يتحدثون عبرها في الحافلات ومتاجر التسوق، بل وهم يكنسون الأرصفة، كأن حمى شفهية قد استحوذت على حياتهم.

ذات مساء تمشيت إلى الميناء. كانت نزهتي المعتادة حين عشت في بوينوس آيرس، ولطالما سرت فيها وسط لفائف حبال الأشرعة ومستودعات أحجار البناء الواقعة على مرمى البصر والرافعات والسفن والبحارة والنوارس. لطالما كررت هذه النزهة كلّما رجعت، كأنني أقلب صفحات كتاب عن أيام شبابي يُبقى على مخرج ومدخل المدينة عند فترة زمنية معينة. لكنني عثرت في تلك المرة على مطاعم فخمة وشقق مرتفعة الأسقف ذات نوافذ كبيرة ومقاه وحراس عقارات، وعالم قد انمسخ تمامًا وصار مائلًا للاستعراض وباهظًا بفجاجة. هكذا، فررت منه مطرودًا كحجر تعرض للركل.

في المساء ذاته، رأيت في المترو فتاة معها أكورديون فوق تنورتها. دفعتني نظرتها الحزينة وملابسها الباهتة لافتراض أنها جاءت من مقاطعة كوريينتس أو توكومان أو ميسيونيس، كما فعل كثيرٌ من المغلوبين على أمرهم. لا بُد أنها قد لاحظت اهتمامي لأنها من دون أن تشيح ببصرها بدأت

تعزف على الأكورديون لحنًا غجريًا قلب كل تكهناتي فجأة. فرغت من العزف حين توقف المترو في أول محطة وترجلت منه. لا أعرف السبب، لكنني شعرت برغبة مفاجئة في السير وراءها، إذ كان فيها شيء حزين وجميل ومذهل، كذلك الركن الذي اختفى من الميناء، بيد أن أبواب القطار قد أوقفتني. شرحوا لي لاحقًا أنها من ضمن الكوسوفيين الذين يسيرون في بوينس آيرس ويركبون حافلاتها وقطاراتها ومعهم هذه الأوكورديونات التي يعزف الأطفال عليها فيما يطلب أبوهم أو أمهم إحسانًا. بدا هذا التفسير السوقي والحاسم كأنه ينفي الدهشة باستكانة تنزع عنها المعنى. لطالما وجدت بوينس آيرس طريقة لتدهشني، لكن شيئًا دنيئًا كان قد التصق بها في هذه المرة، بعناد أكثر من التصاق الأسمنت بغلافَي كتابي.

أهداني بعض الأصدقاء رواياتهم التي نشروها مؤخّرًا، لكنهم لم يتحدثوا كثيرًا بخصوصها. تناقشوا حول ما إذا كان بيغليا أو ساير[4] لديهما استراتيجية ليصبحا القامتين الجديدتين في مسار الأدب الأرجنتيني، أو ما إذا كانت أمور مثل التغيب عن مناقشة أو حفل تقديم كتاب بعد إعلان مشاركتهم قد تُعينهم، وحول ما إذا كان "استهداف" النقد الأكاديمي أم الصحفي هو الأنسب. الاختباء ولعب دور الشبح؟ أم البحث عن دور نشر صغيرة تهتم فعلًا بالعمل على الكتاب؟ أم التألق مع دار إسبانية لشهر والاختفاء بعدئذٍ كشهاب وسط أرفف العناوين الجديدة؟

في ظل إصرارهم على هدم أسوار اللا شهرة، ذلك الحاجز المنيع الذي تنجح قلة محظوظة في اجتيازه، بدت تطلعاتهم الأدبية كالعمل السياسي أو بالأحرى كتكتيك عسكري، فهنالك نجوم برّاقة على الساحة الأدبية؛ وهم قوم قد اكتسوا بالمال بين ليلة وضحاها عبر كتب شديدة السوء مدعومة من دور النشر والملحقات الصحفية الثقافية، وعبر التسويق والجوائز الأدبية والأفلام الرديئة ودفع المال، كي تُعرض في واجهات المكتبات. لطالما دارت هذه الموضوعات على طاولات الحانات، فبدت كأنها ساحة معركة فوضوية يتحتم على أي كاتب أن يجتازها، لا أثناء عملية الكتابة ذاتها، وإنما بمجرد الانتهاء منها، ومع ذلك، فقد أقدم بعضهم على اجتيازها في الوقت ذاته. من جانبهم، اشتكى صغار الناشرين من غياب الكتب الجيدة، و"رداءة" الأعمال التي

تنشرها الدور الكبرى. كان لكل منهم مطلب غاضب، ومُسوِّغ لفشله، وطموح ميؤوس منه. هكذا، أمست صناعة الكتب في بوينس آيرس بؤرة لحرب استراتيجية مجنونة وصارت مرتبطة بكليّة الوجود والسلطة.

بعدئذٍ بأسبوع ركبت القارب المزعنف[5] واجتزت نهر لا بلاتا نحو الضفة المجهولة. بدا النهر داكنًا وهادئًا، وكلما ابتعدت عن بوينس آيرس شعرت كأنني أستعيد إحساسًا بالانسجام أعاد إليّ عبر امتداد الماء والأفق أنفاسي وحيزًا داخليًا.

كان وصولي إلى ميناء مونتفيديو هادئًا ومريحًا. اقتحمت المدينة مياه النهر بحسم متهور، بدت معه البنايات القليلة العالية كأنها رافعات سفينة صيد كبيرة راسية، فيما تلألأ الخليج الذي انتصب فوق طرفه المعاكس تل صغير وكأنه تاج، في هدوء به لمسة من الأمومة.

بعدئذٍ بعدة ساعات دخلت أحد متاجر البلدة القديمة حيث انتظرني مالك واحدة من أكثر المكتبات اهتمامًا بتوفير الطبعات القديمة، ألا وهو خورخي دينارلي. قادني أحد موظفيه عبر صالون واسع على الطراز الكولونيالي إلى أن وصلت إلى مكتب ملآن بالظلال المشعشعة تغطي جدرانه كتب غارقة في ظلال خلقها إطار مصباح قصير مائل فوق لوح كتابة أخضر اللون. هناك، استقبلني ذلك الرجل ذو الشعر الشائب الذي أخبرني الكاتب الأوروغواياني باسمه، وتحاور معي بصوت خفيض إلى أقصى حد.

كان يعرف براور فعلًا منذ عدة سنوات، لكنه تعامل معه مهنيًا فحسب، كما فعل مع بقية مهووسي الكتب في المدينة.

- ثمة صنفان من هؤلاء القوم، واسمح لي أن أشرح لك: بعضهم من هواة الاقتناء الذين يعزمون على مراكمة الطبعات النادرة، مثل المجلة التي أصدرها أوراثيو كيروغا في سالتو[6]، أو كتب بورخيس، وكلٌّ واحد من مقالاته في المجلات، أو انطباعات كولومبو، ناشر غويرالديس[7]، أو الأغلفة الفاخرة التي وقعها بونيت بنفسه، مع أنهم لن يفتحوها إلا لتصفحها كمن يتأمل غرضًا جميلًا أو تحفة ثمينة. بالنسبة إلى الآخرين، فهم قرّاء متمرسون مثل براور الذي جمع على مدار حياته مكتبات مهمة. إنهم قوم شغوفون قادرون على

دفع مال ليس بالقليل من أجل كتاب سيقضون معه ساعات كثيرة، من دون أن يشغلهم شيء آخر سوى قراءته وفهمه... انظر ربما لستُ الشخص المؤهل للحديث عن براور. ثمة أشخاص آخرون أكثر قُربًا منه وعرفوه جيدًا وسيعرفون كيف يقصّون عليك ما حدث، وبالأخص أغوستين ديلغادو. سأعطيك رقم هاتفه، فأنا كلُّ ما يمكنني قوله مجرد أفكار عامة فحسب.

قال دينارلي عبارة "ما حدث" وهو يخفض نظرته فجأة وبانزعاج. هل قصد انتقاله إلى لا روتشا؟ هل هنالك شيء آخر؟ أخرجت المظروف ووضعت الكتاب فوق المكتب.

حدّق إليه بعينيه، وظل ثابتًا بلا حراك بضع ثوان، من دون أن يتجرأ على لمسه.

قلت وأنا منتبه إلى الانطباع الذي ستخلفه كلماتي:

- جئت لأردَّ إليه هذا الكتاب.

حينئذٍ، انحنى ونظر إليه من كثب.

- من أين جئت به؟

- وصل إلى مكتبي في جامعة كمبريدج. ليس لي تحديدًا، وإنما لزميلة. الأمر وما فيه أنه وصل متأخرًا، فعزمت على إعادته.

- حسنًا... لا أدري ما إذا كان أمرًا ممكنًا.

- هل روتشا بعيدة جدًا؟

- ليس الأمر مرتبطًا بروتشا. لقد انتقل ليسكن بالقرب من لا بالوما، لكنني أعتقد أنه رحل عن هذا المكان.

- لماذا؟

قال دينارلي وهو يشير إلى الكتاب:

- أرجوك، من فضلك، خذه.

وضعته مجددًا في حقيبتي، بعد أن صارت حيرتي بمقدار الضعف.

- اسمعني، إنها مسألة عرفتها سماعيًّا. لا أتجرأ على إخبارك بشيء. يجب أن تتحدث مع ديلغادو، فهو من سيخبرك. يجب أن تتصل به بعد العاشرة ليلًا أو في الصباح الباكر. سأعطيك رقم هاتفه. لا تقلق، لكنّ ما بين يديك بليّة. ستفهم ما أعنيه لاحقًا. لا أدري ما الذي ستفعله به. لا أدري ما قد أفعله أنا بكتاب مثل هذا. لا تشعر بالإهانة.

أضاف وهو يشير إلى مكتباته:

- نحن قوم نحب الكتب. ما أريد قوله باختصار هو أنه ينبغي لك أن تتحدث مع ديلغادو.

فتح دفتره ودون رقمًا على ظهر إحدى بطاقاته.

- كل ما يمكنني قوله لك مجرد تفاهات. تعرفت إليه منذ سنوات في أحد المزادات، لأن براور كان قد تحالف مع العجوز مارتيل. أعلم أنه كان يعمل في وزارة الخارجية، وأن براور أو ديلغادو كانا يقدمان على الشراء في المزادات فقط إن لم يرفع مارتيل قلمه أثناء المزايدة. ارتبط الأمر بوجه عام بالأدب الأمريكي، لكن كان لا بد من انتظار قرار العجوز الذي لم يهدر قط أي فرصة ما دام قد شمّ رائحتها. في البداية، صار مارتيل بمثابة عرّابه نوعًا ما، بتنازله له عما لا يهمه. لا بُد أنك تعرف أن شحنات المزادات دائمًا عبارة عن خليط متباين: طبعات من دون قيمة معها دُرر حقيقية، كتب صدرت منها ثلاثمائة أو خمسمائة نسخة، ومع مرور الوقت صار العثور عليها شاقًّا وبناء على هذا، أصبحت باهظة. يُفترض أن الطباعة كانت ستقضي على هذه الإشكالية، فالآلة قادرة على إعادة إنتاج آلاف النسخ، بل مئات الآلاف منها، لكن ها أنت ذا ترى أن الزمن لا يتوقف عن العمل. الزمن والحماقة التي يخرم بها المنضدون صفحات الكتب القديمة لتسويتها، من دون أن يعرفوا مثلًا -واسمح لي أن أبدي غضبي- أنهم بفعلتهم هذه يبدون كأنهم يمزقون آلاف الدولارات أو يكسرون ياقوتة أو يقطعون ريش تمثال النصر المجنح. لا أقدر على إقناعهم بالتخلي عن المتعة المظلمة لاستخدام خرّامة التجليد.

سيطر دينارلي على نفسه واستعاد صوته الخفيض الذي استقبلني به. أزعجه الموضوع. بدا كأنه يشك فيما يرمي إليه بكلماته. بعدئذٍ، تابع حديثه:

- اهتم براور بالأدب، وبالأخص بالطبعات الإسبانية، وكتب الفن ورواية القرن التاسع عشر، وعلى رأسها الرواية الفرنسية والروسية. كانت هذه اهتماماته. اشترى مني ذات مرة بعضًا من منشورات الإخوة كارّيرا[8] التي اهتم بها نيرودا[9] بنفسه، واعتاد أن يأتي إلينا هنا منذ سنوات إن كنت تتذكر، بسبب مسألة...

ساعدته:

- كان لديه عشيقة هنا. أحسب أنها كانت في أتلانتيدا.

- المهم... اعتاد أن يمر عليّ في المكتبة، إذ اهتم دائمًا بمنشورات الإخوة كارّيرا التي نشراها في خضم الثورة التشيلية وهما يتنقلان بالبغال. ذات مرة، عرض عليّ براور مجموعة من مجلات مارتين فييرّو امتلك نسختين من كل عدد منها. أبرمنا صفقة جيدة. كان باحثًا من دون شك، إذ ظهرت كتابات بخط يده في هوامش المجلات التي امتلأت بتعليقات وملاحظات. كانت غير مسهبة بالطبع، لكن هذا يمنحك فكرة عن أنه باحث من الطراز القديم مثل مارتيل وأوراثيو أريدوندو وسيمون لوكويكس، أكثر من كونه هاويًا للاقتناء. على الأقل، يمكنني أن أؤكد لك هذا الأمر... أعرف أنه عاش في بيت كبير عند شارع كواريم، لكنني لم أزره قط. لقد تحاورنا عن مجموعته المكسيكية قبل انتقاله واتخاذه هذا القرار غير المفهوم. لا تقلق. سيخبرك صديقه ديلغادو بكل شيء. انظر: كنا نقدر على شراء مكتبته. أعلم أنها كانت قيمة للغاية. بمرور الوقت، عرفت أيضًا أنها ضمت بعضًا من نوادر الكتب، لكنني كما أخبرتك بنفسي، لم أتمكن من رؤيتها. علمت سماعيًا فحسب أنه امتلك على سبيل المثال كتبًا كاملة لجوان ليون باليير[10] وفيدال[11] برسومها. قد تساوي قيمتها الآن عشرين ألف دولار. لكن الناس يميلون دائمًا إلى اختراع أمور حين تحدث أشياء خارجة عن المألوف، وحينئذ يستحيل أن يتيقن المرء ماهية الواقع من الخيال المحض. أفضل شيء أن تتوجه إلى ديلغادو، لكنني كي أكون صريحًا معك، أشك في أنك قد تحقق مرادك. أظن أن أحدًا لا يعرف إلى أين ذهب براور. أتمنى ألا تشعر بالإهانة، لكنني أرجوك الآن ألا تهدر وقتك معي.

نهض دينارلي ورأيته يتمايل وهو يلف حول مكتبه ويقول:

- إن سمحت لي، فسأطلب منك أن تكون كيّسًا وأنت تظهر هذا الكتاب لديلغادو، لأنه كما ستتبين بنفسك قريبًا كائن شديد الخصوصية.

بعدئذٍ، رافقني حتى باب مكتبه.

سلمني البطاقة وتمنى لي التوفيق.

لما عدت إلى الفندق، تبدد ارتباكي المبدئي وفهمت أن "مسار الظل" قد قادني إلى أرض مقفرة يندر فيها الماء. سرت عبر هذه المدينة المتكتمة على قذارتها وقِدمها، وحتى على طبيعة سكانها. أدهشتني حركة الحافلة البطيئة ولطف الندل في الحانات ومسؤولي الفنادق وسائقي الأجرة، كأن زمنا متوقفًا وعفنًا يخفي تحت حذرها الساكن شبكة ثخينة من الأسرار.

يُحتمل أنني كنت تحت تأثير عبارة من مقدمة هذه النسخة التي لم أتمكن من إعادتها، وصارت كلما مرت الساعات أكثر إثارة للقلق. لم يتعرف كونراد إلى مونتفيديو، لكنه لينفي أي طابع خيالي على كتابه أكد: "يكتنف عالم الأحياء بمفرده روائع وألغازًا كافية. إنها روائع وألغاز تعمل مع عواطفنا وذكائنا بصورة غير قابلة للتفسير، لكنها في الوقت نفسه كافية لتسويغ حياتنا كأحد أشكال السحر".

لم أتمكن من إبعاد هذه العبارة عن ذهني وأنا أتذكر كلمات دينارلي والانطباع الذي أثاره مكتبه فيّ؛ هو ومقدمة السفينة العملاقة التي ظهرت في نهاية الشارع الفائض بالحركة المرورية وبموظفي المصارف وبأكشاك المجلات. كل شيء متكدس وغير متجانس: مقدمة السفينة الحمراء والمدينة الرمادية، كأنهما عالمان متداخلان فيما بينهما، ما جعل كلَّ عالم منهما مستبعدًا بشكل ما.

يسرّنا أن نُهدي إليكم هذا الكتاب/الرواية بصيغة نصّية حصريًا على قناتنا.

وندعوكم للانضمام إلى قناتنا عبر هذا الرابط لتنهلوا من إصداراتنا النصية السابقة، ولتكونوا أوّل من يتابع كل ما هو جديد من إصداراتنا النصّية الحصريّة القادمة.

https://t.me/xepub

*

القناة الاحتياطية:

https://t.me/xepub1

ثلاثة

اتصلت بديلغادو في الحادية عشرة ليلًا. أبدى دهشته، لكنه وافق على استقبالي مساء اليوم التالي وأخبرني بعنوانه الواقع في حي اسمه "بونتا كارّيتاس"، وهو الاسم الذي لم أهضمه بسهولة.

قال لي ديلغادو "مكتبي"، لكنني بمجرد أن وصلت إلى المبنى الحديث وصعدت إلى الطابق الخامس حيث فتح لي الباب، تفهمت أن الفكرة التي تصورتها خاطئة بالكامل. قادني ديلغادو، بنحافته وطوله وبزته الزرقاء وربطة عنقه السوداء، إلى صالة أطلت نوافذها المصقولة من الزجاج المشطوف على الشارع. راقب ذهولي بفخر. اكتست الجدران بمكتبات زجاجية ملأى بالكتب، من نعولها حتى قمتها؛ لا فقط في هذه الصالة، وإنما في المجاورة لها. تجول معي عبر الطابق بأكمله وبين هذه الغرفة وتلك الأخرى، عثرت على مكتبات زجاجية مشابهة تملؤها مجموعات متنوعة من الكتب، وأرفف دوارة في الطرقات رقدت فوقها قواميس، وأسطوانات من الفينيل متراكمة في خزائن أخرى، وكتب في دورة المياه وغرفة الخدم، والمطبخ، والغرف الخلفية. خمنت أنه لا يعيش هنا، وهي المسألة التي اضطلع بشرحها لي لاحقًا حين جلسنا فوق مقعدي صالون كبيرين في الصالة أمام نظام البيت الصوتي.

رد على تخميني:

- أعيش في الطابق العلوي مع زوجتي، وعاش معنا ابني حتى فترة ليست بالبعيدة. فكرت ذات مرة في بناء سلم داخلي يصل بين الطابقين، لكنني أدركت في الوقت المناسب أنني لا يجب أن ألوث الكتب بالحياة المنزلية، لأنها ستتسخ بالضرورة.

كان قد وضع ساقًا فوق الأخرى وتمكنت من رؤية شبر من جلده الأبيض الرقيق بين جوربه القصير والطرف السفلي لبنطلونه، وهي المسألة التي خطر لي أنه لو أدركها، لعمل على تفاديها. دفعني وجهه المحلوق للتو

والتمازج الرمادي لشعره وطابع أناقته الحادة إلى توخي الحذر. سألته: - كم كتابًا لديك هنا؟

- في الحقيقة... توقفت عن العد، لكنني أحسب أن عددها نحو ثمانية عشر ألفًا. بدأت في شراء الكتب واحدًا تلو الآخر، منذ بدأت ذاكرتي تتشكل، فكل مكتبة يبنيها المرء حياة في حد ذاتها، أو بمعنى آخر، ليست مجرد مجموعة من الكتب المفردة.

رجوته:

- سيروقني أن أفهم مقصدك بشكل أكبر.

- حين تتراكم الكتب فوق الأرفف، قد تبدو كأنها مجموعة، لكن اسمح لي أن أقول لك إن هذا محض وهم. نحن نلاحق موضوعات بعينها، وبعد فترة يُحدد المرء في نهاية المطاف عوالمه أو يرسم، إن لم يرقك التعبير، مسارًا لرحلته عبر الأثر الذي تتركه هذه الكتب ويحتفظ به. الأمر ليس هيِّنًا. إنها عملية نُكمل فيها مراجعنا، فكلما شغلتنا إشارة إلى كتاب ما ليس لدينا، نسعى وراءه، فنترك أنفسنا ننقاد من كتاب إلى آخر. مع ذلك، يتحتم عليّ أن أعترف لك أنني قارئ مُحدَّد جدًا، إذ أحتاج إلى قراءة كلِّ الملاحظات واستيضاح معنى كل المفاهيم، لهذا فمن الصعب جدًا أن تجدني أجلس لقراءة كتاب واحد، إلا وخلفي أحيانًا ما يقرب من عشرين كتابًا غيره كي يكتمل عندي تفسير فصل واحد. هذا هو شغفي بالطبع.

ارتسمت على وجهه ابتسامة متواطئة قبلتها من دون صعوبة، ثم قال: - لكن للأسف، كم ساعة يُمكنني أن أكرّسها للقراءة يوميًّا؟ أربع أو خمس ساعات غالبًا. انظر: أعمل من الثامنة صباحًا حتى الخامسة مساء في منصب له مسؤولياته، لكنني أنتظر باستماتة أن تأتي ساعة دخولي إلى هنا، إلى هذه المغارة، إن سمحت لي أن أصفها هكذا، وذلك كي أقضي وقتًا سعيدًا حتى الثامنة، حين أصعد لتناول العشاء... أنا لا تهمني الطبعات الأولى، وإنما أن يكون الكتاب الموجود في متناول يدي في أفضل حالة ممكنة، لأن الجزع يُصيبني إن حدث العكس. إن كل هذه المكتبات التي تراها أمامك مصنوعة من اللاباتشو، وهو خشب يخلو من الشقوق التي قد تنفذ منها الحشرات.

بالنسبة إلى الأرفف، فقد صُنعت خصيصًا لي. إنها عشرة ألواح من الخشب المتين الملصوقة بغراء طارد للحشرات، وإن كنت قد قررت تزويدها بواجهات زجاجية، فمرد الأمر إلى أن ترابًا كثيرًا -وهو أمر واضح- يتراكم فوق الكتب. مع ذلك، فبين الحين والآخر، يتحتم عليّ لدرء الشكوك وتحسبًا لأي شيء، أن أبخرها بالمبيدات. لطالما أصابت حشرات السمكة الفضية براور بالجنون.

قررت استغلال الفرصة:

- هل احتفظ بكتبه في خزائن لها واجهة زجاجية؟

ابتسم وظل صامتًا بضع ثوان.

- احتفظ بها بكل السبل لأنه افتقر إلى الموارد اللازمة للحفاظ على عمله المذهل. لطالما تناقشت معه بخصوص هذا الشأن، لكن براور كان دائمًا قارئًا مندفعًا. كلما امتلك مالًا، أنفقه على الكتب. أدركت أن داءه لا علاج له حين تعرفت إليه منذ سنوات عند منافذ بيع الكتب في تريستان نارباخا، فهي مسألة يراها المرء في بشرة مدمني الكتب الشبيهة نوعًا ما برِق الكتابة.

نظرت مرة ثانية إلى كاحل ديلغادو الرقيق الذي بدا بصفرته وخفّته فعلًا كرقّ كتابة. لا بُد أنه قد لاحظ اهتمامي، إذ هندم بنطلونه على الفور، ثم مضى في حديثه: - شغل منصبًا مهمًا في وزارة الخارجية. عاش وحده في بيت يقع في شارع كواريم والتهم كل الكتب التي وصلت إلى يديه مع كل عبوات الحلوى والسكاكر التي فاضت بها أرضيات غرفه. جاءت عادة السكاكر لتحل محل السجائر التي منعه الأطباء من تدخينها، وقد استهلكته مثل الكتب التي جمعها في مكتبات طويلة احتلت الغرف من أرضياتها إلى أسقفها، وفي كل جوانبها، بل وتراصّت في المطبخ والحمام، وأيضًا غرفة نومه. ليست غرفة النوم الأصلية، لأن تلك أخلاها سلفًا، وإنما في العليّة التي صار ينام فيها، إلى جوار حمام صغير. امتلأ جدار السلم الذي يقود نحو العلية أيضًا بالكتب، وكي نصغ الأمر بشكل ما، فلنقل إن أدب القرن التاسع العاشر الفرنسي كان يراقب نومه الخفيف... امتلك مجموعات كاملة من المجلات القديمة، والكثير من كتب التاريخ الكلاسيكية، وكلَّ الأدب الروسي الذي كُتب في القرن التاسع

عشر تقريبًا، بخلاف مجموعات من الأدب الأمريكي، وكتبًا عن الفن ومقالات في الفلسفة وتعليقات عن مقالات، وكلَّ المسرح اليوناني والإيسابيلي، والشعر البيروفي حتى منتصف القرن العشرين، وبواكير المطبوعات المكسيكية، والطبعات الأولى لكل من أرلت وبورخيس وباييخو وأونيتي وباينكلان، وهذا كله من دون إحصاء الموسوعات والقواميس والمنشورات ونسخ المسافرين عبر نهر لا بلاتا... امتلك كتبًا كثيرة، وأحسب أن عددها تخطى عشرين ألفًا، إلى درجة أن غرفة المعيشة التي لم تكن صغيرة على الإطلاق صارت ملأى بأرفف مشابهة لتلك الموجودة في المكتبات العامة. ضمت جدران الحمام كافة كتبًا، باستثناء منطقة الاستحمام، وإن كانت لم يمسسها سوء، فمرُّد الأمر إلى أنه كف عن التحمم بالماء الساخن لتفادي البخار. سواء في الصيف أم في الشتاء، تحمّم دائمًا بماء بارد.

دلّك ديلغادو مؤخرة رقبته وابتسم من دون أن ينظر إليّ، لكنه في النهاية فعلها.

- هل تعرف ما الذي وصل إليه الأمر؟ لقد أهدى سيارته إلى صديق كي يتمكن من استغلال المرأب. لم يحالفه التوفيق مع هذا التغيير، فبعد مرور عام حل شتاء رهيب وأفسد تنقيط الماء إلى الأبد مجموعة "سوما أرتيس"[12] ذات الورق الرقيق المُلمّع، ولأنني امتلكت نسختين من كل أجزائها، منحته واحدة.

تشجعت على أن أقول له:

- إذن، لقد حظي، كما أفترض، بأريحية مادية.

- حالفه الحظ بالتقاعد المبكر وحصل على إرث من أمه. لقد تناقشنا مرات كثيرة بخصوص مصير هذا المال تحديدًا. أبديت إصراري على ألا يُبدده في المزادات، وأن يُنفقه في الحفاظ على مكتباته، لكنه كما أخبرتك كان قارئًا نهمًا. لم يقض أربع ساعات مع الكتب، وإنما جزءًا كبيرًا من النهار وطوال الليل، ولهذا بدت كتبه حتمًا كأنها مخطوطات من كثرة تعليقاته... أنا لا أترك علامات في الكتب، بل أضع ملاحظاتي في أوراق خارجية، قبل أن أضيفها إلى الصفحات وأنا أعمل. بعدئذٍ أخرجها وألقيها في سلة المهملات.

سألته مذهولًا:

- ولماذا لا تحتفظ بها؟

- حسنًا... لا يستطيع أي شخص أن يكتب، أو بكلمات أخرى: لا ينبغي لأي شخص أن يكتب. أدون أمورًا تروقني، بين روابط وإشارات تقودني إلى كتب أخرى، وربما بعض الانطباعات. إنها مجرد ملاحظات قارئ، ومنها مثلا: "بناء على شكل هذه الاستعارة التي صاغها كيبيدو[13]، فإنها تستدعي المقارنة باستعارات ابن قزمان[14] الموجودة في الأنطولوجيا العربية الأندلسية، فلتطالع طبعة "غريدوس"[15]، و"ترتبط صورة العصافير برمزية الطيور في أعمال لوبي دي بيغا[16]، فلتطالع مجموعة المجلس الأعلى الإسباني للأبحاث العلمية". من الذي قد يهمه شيء مثل هذا؟ أعترف لك أن بعضًا من انطباعاتي قد أغوتني، ومع أن القارئ مسافر عبر مشهد مكتمل التكوين، فلا نهاية لرحلته. لقد كُتبت الشجرة وكُتب الحجر؛ كُتبت الريح التي تهز الغصن، والحنين إلى هذا الغصن، بل والحب الذي تظلل به، لكنني لا أجد سعادة أكبر من أن أقضي سويعات قليلة يوميًا في هذا الزمن الإنساني الذي كان سيظل بأي طريقة أخرى بعيدًا عني وما من حياة واحدة كافية لاجتيازه. سأسرق من بورخيس نصف إحدى جمله وأقول لك: "المكتبة باب في الزمن"... لطالما اعتدت أن أتحدث مع براور وطلبت من ألا يفسد نسخًا شديدة القيمة بشخبطته الفظيعة. لم يأخذ برأيي بالطبع. اتهمته بانعدام الحساسية، فيما اعتبرني منافقًا. يجب أن تعرف أن كلها أمور اعتدنا أن نؤنب بعضنا بعضًا عليها بثقة كاملة. قال إنه كلما كتب في الهوامش ووضع خطوطًا، بألوان مختلفة، ومُشفرة في أحيان كثيرة، تمكن من التقاط المعنى. أحسب أنني لن أزعجك إن أخبرتك بواحد من تعبيراته، وهو تعبير سوقي جدًا: "أنا أعاشر كل كتاب، وإن لم أترك علامة، فلا وجود للنشوة". أنا نقيضه، إذ تبدو لي الشخبطة فعلًا متوحشًا مشابهًا للمباهاة الموجودة في كلماته. تغدو متعتي جمّة، كلما فتحت كتابًا من دون أن أجد أي صفحات مثنية، وأنا أتأمل المسافات الصغيرة بين سطوره وطباعته وهوامشه البيضاء الواسعة، وبالمثل كلما فتحت كتابًا غير متسق الحواف في عيد ميلادي.

توقف ديلغادو عن الحديث كأنه قدم اعترافًا متهورًا، لكنه لملم شتاته فورًا وأضاف: - لم يأبه براور بكل هذا، في ظل خيلائه الشرهة، وتنامي نهمه.

توقف مرة ثانية عن الحديث بإيماءة حزينة. أخفاها بالوقوف، ثم سارع بالاعتذار مني لأنه لم يقدم لي شيئًا، وتوجه نحو آلة قهوة كهربائية. قال حين فرغ من إخراج قدحين من الخزف الصيني من خزانة المشرب الصغير: - لطالما قال لي إن حشرة السمك الفضية أصابته بالجنون.

رفع حاجبه حين انتهى من إعداد القهوة.

- كان لديه مئات منها داخل مكتباته أو ربما آلاف. تمكن خلال فترة ما من السيطرة عليها عبر عمليات تبخير لإبادة الحشرات، أجَّر مختصين لإجرائها كل ستة أشهر، أو سنويًّا على أقصى تقدير، لأنها تسببت في إفساد أعمال هامّة امتلكها. أوقفها. هذا صحيح، لكنه لم يقض عليها تمامًا. استخدم ألواحًا من الخشب الخشن، وعملت لديه خادمة لم تعد شابة. لم يتجرأ على تسريحها، مع أنها توقفت عن الوصول بالسلم إلى الأركان التي سكنها العث. دعني أخبرك بكل صراحة، أنه قد امتلك كتبًا زائدة عن الحد في هذا البيت. لربما احتاج إلى ثروة لإبقائها في مأمن من الرطوبة وحشرات الأسماك الفضيّة، والعث، والتراب والعناكب. لقد صار طموحه بشكل ما خارج السيطرة. أؤنب نفسي على الوقت القصير الذي أخصّصه للقراءة، لكن تخيل رجلًا لديه النهار بطوله، والليل أيضًا إن أراد، بل والمال الكافي لشراء كلِّ الكتب التي يودها. لن يصبح لديه حدود، وسيغدو تحت رحمة رغبته، واسمح لي بهذه الملاحظة: ما الذي تريده الرغبة أصلًا؟ العثور على حدٍّ لها! لكن العثور على هذا الحد ليس سهلًا بهذه الصورة. أكثر من كونه مسافرًا، كان براور غازيًا. هذا ما صاره. ما أود قوله إنه كان يفقد عقله في المزادات. حسنًا، كان يفقد عقله وأصدقاءه، لأن كثيرًا من الزملاء استاؤوا من خسارة شحنات انتظروها منذ فترة طويلة وانتهى بها المطاف بين يديّ براور، من دون أي فرصة لتقديم عرض مضاد لعروضه... لكن هذه ليست المسألة فحسب. جاء وقت بدأ فيه المال يشحّ منه. لم يكن مليونيرًا في النهاية. لنقل إنه وصل في النهاية إلى هذا الحد. كف عن الصراع على الأسعار، وأخيرًا توقف عن التوجه إلى المزادات. ثمة شيء آخر: طالبته زوجته السابقة بعد

مرور سنوات كثيرة بالمال عن طريق محام، وأسوأ شيء، أنه وجد نفسه مضطرًا للمرة الأولى، إلى مواجهة حاجته إلى بيع المنزل والانتقال.

- لم تخبرني أنه كان متزوجًا.

- لم يتحدث عن الأمر قط. حدث هذا منذ سنوات كثيرة قبل أن أعرفه، وفي المرات القليلة التي تطرقنا فيها إلى الموضوع لم يغدق عليّ بالتفاصيل.

توقف ديلغادو عن الحديث وهو يصب لي قدح القهوة، ثم نظر إليّ بطرف عينه.

- لم أسألك أصلًا عن سبب مجيئك إلى هنا. كفاني أن يرسلك دينارلي فحسب. لا بُد أنك تفهم أن براور لم يكن ليأتي بالطبع على ذكر موضوع مؤلم مثل هذا كثيرًا.

لقد عثر فعلًا على طريقة لسؤالي عن السبب، لكنني استمتعت بتأخير إجابتي بخبث لا يُمكنني تفسيره. كنا قد قضينا فترة معقولة ونحن نتحدث، ولم أجد أثرًا يُخبرني بالأسباب التي قادت نسخة "مسار الظل" هذه إلى مكتب بلوما. مع ذلك، استشعرت أنني أقترب بصورة غير محسوسة من هدفي، بالصورة ذاتها التي تحرك بها قارب أوتاغو الشراعي وسط هدوء المحيط المعتم، في رواية كونراد.

تقبل ديلغادو تأخري، مع أنه قد أزعجه بكل وضوح:

- لم نتحدث كثيرًا عن الموضوع أيضًا. لا أعرف السبب، لكن كان واضحًا أن المسألة قد وصلت إلى نقطة اللا عودة، إذ شعر أنه صار أسيرًا للكتب. كيف يُمكنه أن ينقل مكتباته. كيف يتجنب مصير التخلص منها؟ لقد كرّس لها حياته. إنها عمله. بعيدًا عنا، نحن بعض الأصدقاء الذين اعتدنا أن نزوره، وبعض أمهات الحي اللاتي أرسلن له بين الحين والآخر أبناءهن للاطلاع على كتاب ما لأداء فرض يخص المدرسة أو الكلية، فقد بدأ عمله هذا يغدو كابوسًا... ما الذي تحتم عليه أن يفعله بالكتب إن قرر التخلص منها؟ أن يعرضها على مجلس البلدية أو الوزارة أو كلية العلوم الإنسانية؟ لقد اشترت دولة أوروغواي مكتبات كثيرة مهمة وأنقذت إرثًا ثريًا، لكن دعني أقول لك -وأنا

أشعر بالخزي- إن كثيرًا من هذه المكتبات قد نهبت لاحقًا بأغرب الطرق، إذ جاء قوم إلى هنا لسرقة أعمال قيمة. على سبيل المثال، أمر مهووس كتب أرجنتيني بسرقة نسخة مطبوعة من "المُبشر". دعني أخبرك بأن كل مطبوعات المهمات التبشيرية نادرة جدًا، ولا يوجد منها في "المكتبة الوطنية" إلا واحدة فحسب. لقد سرقوها لصالح هذا الرجل الذي لست مهمتًا بذكر اسمه. بعدئذٍ بعام، بيعت كتبه إلى "مكتبة ليما"، وظهرت هذه الوثيقة هناك... لهذا السبب تحديدًا لم يتمكن براور من التفكير في هذا المصير من دون أن تراوده مخاوف تبديد عمله. نهبوا من كلية العلوم الإنسانية أيضًا وثائق مهمة من مكتبة أوراثيو أريدوندو[17]، فيما فُقد البعض الآخر. لم يرد أن تلاقي كتبه مصيرًا كهذا، لكنها صارت تشغل ما تحت فراشه واصطفت في الطرقات، كأن الحياة قد دبت فيها لتزحف عبر البيت. أتذكر أنه قرر في وقت ما، على الرغم من أن الوضع كان لا يُطاق، أن يشغل نفسه بتحديث فهارسه. لم يعد يعثر على الكتب التي يبحث عنها، وتكرر الأمر كثيرًا. يقول الناس: "الكتاب الذي لا يعثر عليه، كتاب لا وجود له". لكن الأمر أسوأ من هذا... امتلك خزانة من خشب المهاغوني، مثل تلك الخزائن الموجودة في المكاتب القديمة، المزودة بنظام إغلاق جرّار، وأدراج لحفظ الفهارس، كحال المكتبات العامة، فعشرون ألف كتابٍ لا تُرتب نفسها بنفسها. لا بُد وجود احترام دقيق للنظام، بل احترام يفوق حدود البشر تقريبًا. سأقول إنه لا بد من وجود منهجية، ووقت مخصص لمهمة تعيسة ترتبط بتصنيف الأعمال التي يختلف معناها عن الأرقام التي تُعَرّفها، مع وضع العنوان واسم المؤلف وملخص مختصر له معنى محدد بالنسبة لك. إن أردت أن تذهب إلى الأمازون مثلًا فعليك أن تتجهز لتفاصيل كثيرة بعيدة عما ستعيشه هناك، لكنك تعرف في الوقت نفسه أنها في النهاية ستنفعك أو ستقودك إلى مبتغاك. لو أردت أن تكتب قصيدة، فستحتاج إلى ورقة وأداة سليمة للكتابة. لو أردت أن تغرم بامرأة، فعليك أن تستعد إلى تلقي أوامر كثيرة ومختلفة لن تسرك أحيانًا مثل أن تقص أظافر قدميك. حين يمتلك المرء مكتبة مثل مكتبة براور، يعدّ الفهرس أمرًا لا غنى عنه. قد ينجح رجل ما في أن يظفر بقراءات كثيرة، لكن القارئ المُظفّر هو من يلزم نفسه بترتيبها. لم يرقه الأمر، في ظل نهمه الدائم إلى قراءة جديدة تلو الأخرى.

كان فهرسه متأخرًا، وأظن أنه كان متأخرًا بصورة زائدة عن الحد. لم أعتقد أنه قادر على فعلها، لكنه بعد بضعة أشهر قال لي إنه تمكن من حل المسألة تقريبًا. قال لي حينذاك: "أسوأ شيء، وأكثر ما يتطلب مني عملًا مسألة الصلات"... كان هذا أول مؤشر على أن الأمور لا تمضي بخير. ذات مساء، شرح لي وهو يجلس في المكان نفسه الذي تجلس فيه الآن المجهود الذي يبذله لكيلا يضع على نفس الرف مؤلفين بينهما نزاعات. لم يتجرأ على وضع كتاب لبورخيس إلى جوار كتاب لغارثيا لوركا الذي وصفه المؤلف الأرجنتيني بـ"الأندلسي المحترف"؛ أو على وضع عمل لشكسبير إلى جوار مارلو، ومرد الأمر إلى اتهامات التزوير الأدبي المروعة بينهما، لكن أمرًا مثل هذا كان سيجبره على عدم احترام الرقم التسلسلي لكل كتاب في مجموعته. بالطبع أيضًا، لم يغدُ ممكنًا وضع كتاب لمارتن آميس إلى جوار جوليان بارنز بعد أن تشاجر هذان الصديقان؛ أو وضع بارغاس يوسا إلى جوار غارسيا ماركيز. دعني أخبرك أنني صَمتُّ بحزن أمام المؤشرات على أن صديقي بدأ يعاني من اضطراب ذهني. شرح لي أنه يعمل على منظومة أرقام عشرية مرنة بما يكفي للسماح بتغيير أماكن الكتب وفقًا لمعايير ديناميكية، شدد بنفسه على أنه لا مجال للحدس فيها على الإطلاق لأنه، في نهاية المطاف، لا يوجد شيء أكثر تقلبًا من التقييمات الأدبية. بهذه الصورة، إن عثر على أسباب كافية تنتشل عملًا ما من النسيان أو تجعله يظفر بصِلة مع نصوص أخرى، فكان يغير مكانه فوق الأرفف. ظل يدافع عن ضرورة القضاء على الفهرس القائم على الثيمات بإصرار شديد إلى درجة أنه تمكن من إرباكي بضعة أيام. بالطبع، كان تحديد أماكن الكتب أمرًا، ووضعها معًا أم وهي منفصلة أمر آخر، لكنه أصر على أن الكتب التي بينها صلة تستحق أن تجتمع تحت منظومة أخرى غير النظام المبتذل القائم على السِّمات... قال حينذاك: "لقد استعملنا طيلة قرون منظومة سوقية تفتقر إلى حساسية نظام الصلات. ما أود قوله هو أن "بدرو بارامو" و"لعبة الحجلة" عملان من أمريكا اللاتينية، لكننا إن أردنا أن نمضي في طريق كلٍّ منهما، فواحدة ستقودنا إلى ويليام فوكنر، والثانية إلى موبيوس. دعني أصيغ لك الأمر بشكل آخر: صار دوستويفسكي أكثر شبهًا بروبرتو أرلت عن تولستوي، بل إن هيغيل وفيكتور هوغو وسارميينتو

يستحقون أن يتجاوروا أكثر من باكو إسبينولا وبينيديتي وفيليسبرتو إرناندث".
لم أتمكن قط من رؤية كيف كانت فعلًا منظومة تصنيف كارلوس، لأنني أُودعت في المستشفى للخضوع إلى جراحة، ولم أره طيلة شهور، لكنّ أصدقاءً مشتركين أبقوني على إطلاع وقالوا إنه يعمل على فهرسه ويُكرس ساعات كثيرة لدراسة الحسابات المعقدة، وإن أغلبهم قد جفلوا حين لاحظوا عليه، لا مؤشرات إرهاق فحسب، وإنما أيضًا جنون.

نهض ديلغادو وخرج إلى الصالة. عاد ومعه صورة يظهر فيها رجل عمره نحو خمسين عامًا وهو يجلس إلى طاولة مستديرة تفيض بالكتب، وظهره إلى جدار من الآجر يتسلقه لبلاب. أضاءت الشمس وجهه ذا الملامح الرقيقة وعينيه المتقدتين، فيما بدا شعره مبعثرًا نحو الوراء. ظهر في الصورة بقميص مشمر الكمين وهو يضع ساقًا فوق الأخرى، وأعطت هيئته انطباعًا بغلاظة لم أتوقعها.

قال ديلغادو بعد فترة صمت وجيزة:

- التقطتها له في باحته الخلفية.

أبديت ملاحظتي:

- لم يستخدم نظارة.

- كان نظره قويًا. ابحث عن أي مؤشر قد يوشي بما سأقوله لك الآن ولن تجده... الأمر وما فيه أن صديقًا عثر عليه ذات مساء وهو يتناول عشاءه أمام طبعة مذهلة من "إل كيخوتي" موضوعة فوق مسند قراءة، مع كأس من النبيذ الأبيض. لا أعني الكأس التي أمسكها في يده، وإنما كأسًا أخرى بدت بكل غرابة كأنها موضوعة للكتاب... اختبر صديق آخر انكشافًا أغرب. اضطر إلى الصعود إلى حمام العلية، لأن ذلك السفلي كان معطوبًا وحين مر أمام باب الغرفة شاهد فوق الفراش، المرتب بعناية، نحو عشرين كتابًا، لكنها مرصوصة بصورة تمنحها بسبب أحجامها وزواياها هيئة جسد بشري. أكد أن كلَّ شيء كان واضحًا: الرأس الذي أحاطته كتب صغيرة حمراء اللون، والجذع، وشكل الساقين والذراعين. هل كان شكلًا لرجل؟ لامرأة؟ هل صنع شبيهًا له؟ تناقشنا بخصوص الأمر. لم يتمكن أحد من تأكيده أو كشف معناه.

لم نعرف أصلًا ما إذا كانت العناوين منتقاة، لكن هذا الصديق يحسب أنه تعرف على أحد كتب الكونت سيرويلا، وعلى نسخ من "ملخصات صندوق الثقافة الاقتصادية" في الرأس، وعلى عدد من طبعات دار "لوسادا" في الساقين... لا نعرف السبب وراء وجود هذه الكتب في الفراش أو ما الذي فعله بها. لم يتجرأ أحد على سؤاله، لأن هذا المشهد كان يتعلق بخصوصية غرفة نومه، لكن بالنسبة إليّ بات واضحًا أن مسألة الصلات قد قادته بعيدًا، وأصبحت خارج السيطرة.

- هل رأى المسألة أي شخص آخر؟

استأنف ديلغادو حديثه:

- هذا الصديق فحسب. حكاها بأكبر قدر ممكن من التحفظ. أصابتنا الحيرة. ما الطريق الذي قرر أن يمضي فيه رجل بمثل ذكائه مع الكتب؟ هل لعب بها كما تلعب طفلة بدماها؟ هل رتبها بعد إمعان دقيق بخصوص معناها؟ هل سعى إلى استحضار هيئة قوامها الورق والحبر؟ لا أعرف! لكن الضربة القاضية تمثلت في حادث لم يسامح نفسه عليه قط وشهدت بنفسي على أثره المدمر، من دون سبق إصرار أو ترصد... قالوا لي إن كارلوس قبلئذٍ بشهرين بدأ يستمتع بقراءة فرنسيي القرن التاسع عشر على ضوء الشموع التي استخدم لها شمعدانًا من الفضة. كنا قبلئذٍ بفترة قد تحاورنا بخصوص الأمر لأنني أستمتع أيضًا بقراءة غوته فيما تنبثق من نظامي الصوتي أوبرا فاغنر، وبقراءة بودلير وأنا أستمع، لنقل، إلى ديبوسي. هذا جزء من الرحلة، ويمكنني أن أؤكد لك أن المتعة تغدو أعظم بالنسبة إلى كل الأحاسيس. ربما تعلم أن تردد الحروف لا يُسمع حين نقرأ بصوت خفيض، لكننا لا نكتم الصوت أبدًا، إذ يظل هناك. صحيح أنه خافت، لكنه يظل موجودًا، ويُطيع ما هو مكتوب في السطر كما تُطيع الآلة النوتة الموسيقية. يمكنني أن أؤكد لك أن هذا أمر جوهري مثل حاسة البصر، فهو يخلق نبرة أو إيقاعًا يسري عبر الكلمات والعبارات، فيتولد معه -إن صاحب كل هذا موسيقى بصوت معقول- طباقٌ متجانسٌ في عمق طبقة الأذن، بين صوت المرء نفسه وصوت السماعات، لكن لو ارتفعت الموسيقى قليلًا، ستغطي صوتك وتقتل النص. ليس هذا فحسب، بل إنها قد تقدر أحيانًا على خداعك، لأن أي نص سيئ، إن رافقته

موسيقى جيدة، قد يبدو أفضل بكثير مما هو عليه أصلًا... لطالما مزحنا بخصوص فكرة القراءة على الشموع في حالة الأعمال التي تسبق اختراع الكهرباء. ربما يبدو لك كل هذا خروجًا عن المألوف ولا لزوم له، لكن جرب إضاءة لوحة زيتية بنور الشموع وستلاحظ أنها ستكتسب -مهما كانت إضاءتها جيدة فيما سبق- مفهومًا مغايرًا لما عهدته، بل ستغدو لوحة جديدة. ستدب الحياة في ظلالها وستشعر بأنه لم يعد ثمة فارق جوهري بين الضوء الذي يولد من صبغاتها والزيت والغرفة ذاتها، لأن المساحات ستتمدد وستجد نفسك تدخل إلى بُعد كاشف. يحدث شيء مشابه مع كتب معينة، فما الصفحات إلا لوحات عظيمة. إنها مجموعة من السطور والرموز الصغيرة التي تتكرر بين حروف متحركة وساكنة لها قوانينها الإيقاعية وتراكيبها الخاصة، ولحجمها ونوع الخط المستخدم فيها وأسلوب هوامشها وسُمك ورقها وترقيمها -سواء جاء في وسطها أم على يمينها- والتفاصيل اللا نهائية التي تمنحها مهابتها، دوره الذي لا غنى عنه. مهما كانت الطبعة جديدة، ومهما كان بياض الورق، فإن ضوء الشموع يصبغها ببريق ويضفي عليها قيمًا ودرجات وسحرًا خلابًا. ويا للطريقة التي قد يستمتع بها المرء الممرات البينية!

سألته حائرًا:

- أي ممرات بينية؟

- انظر، هذا نقاش قديم. لا يعرف أحد تمام المعرفة، ما إذا كان الأمر مرتبطًا بموهبة المؤلف أم بجودة الطبعة. الآراء منقسمة، لكن ثمة قراء كثيرون يحتاجون فقط إلى النظر إلى الممرات البينية لمعرفة ما إذا كان أي كتاب جيدًا ويستحق القراءة.

ذهب ديلغادو إلى مكتبته وأخرج نسخة قديمة من "أوجيني غراندي"[18] ووضعها بين يديّ. طلب مني أن أفتحها وأن أبحث في أي صفحة عن أي قنوات أفقية أو مائلة مرسومة بفعل المساحات الفاصلة بين الكلمات. اكتشفت فعلًا قنوات طويلة تمتد بين الأسطر وتقطع الفقرات. صحيح أنها

توقفت أحيانًا، لكنها استأنفت لاحقًا مسارها بميل من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، أو مضت في حالة سقوط حر.

- الكاتب الذي لا يتمتع بإيقاع سردي، لن يحقق أمرًا مثل هذا. لو أفسد اللغة بكلمتين أو ثلاث كلمات قوامها أكبر من أربعة مقاطع في جملة واحدة، سيقطع هذه القناة، ومن بعدها الإيقاع. ستبحث عنها في الصفحات ولن تجدها. إن أي طبعة حمقاء، سواء كانت أصغر أو أكبر من اللازم، ستنهتك أيضًا هذه الرموز التي لنقل إن العين تتأملها في السر. مال براور إلى التفكير في أن هذه الظاهرة يُمكنها أن تحدد ماهية الكاتب ومدى عظمة أسلوبه، لكنني لست واثقًا.

سلمته الكتاب، بارتباك، بعد أن تحققت من أن الممرات البينية تتكرر بين الصفحات وتكون أشكالًا غريبة، ثم ذكرته: - لقد تحدثت عن حادث.

- صحيح. تزامنت عودتي إلى أنشطتي مع تلقي نبأ أن كارلوس أضاء قراءاته تحديدًا بالشموع، ولم يفعل شيئًا سوى تشجيع الباقين على تقليده، لكن ليس مع أي مؤلف من القرن العشرين، ففي تلك الحالة استخدم الإضاءة الكهربائية، مع تبديل الموسيقى بالطبع، لكنه كان محبًا لرواية القرن التاسع عشر وامتلك أقراصًا موسيقية قادرة على أن تصنع صحبة جيدة معها. ذات ليلة أفرط في النبيذ، وهو صحبة جيدة أخرى، لكنها في الوقت نفسه خطيرة، إذ نسي الشمعدان فوق خزانة الفهرس. لا بد أن إحدى الشمعات قد سقطت لأنه استيقظ مختنقًا بفعل الدخان وشاهد ألسنة اللهب في غرفة المعيشة. من حسن الحظ أنه نام في الأعلى، لأن الدخان كما تعلم يميل إلى التصاعد. عثرت عليه في اليوم التالي وهو يقف أمام فهرسه المحترق، لأنه لم يأت أصلًا ليستقبلني عند الباب. غرق البيت في الماء، وبدا على وجهه أنه لم ينم طوال الليل وكان حزنه هائلًا. حدثت المعجزة ولم تحترق مكتباته، فلم ينته الأمر بطامّة كبرى، لكنه كان قد فقد أرشيفه المفهرس، إذ احترق جزء وفسد الجزء الآخر بسبب الماء. هتف ليأمرني بالدخول. كان، كي أصوغَ لك الأمر بشكل ما، منهارًا فوق مقعد وهو يحدق إلى آثار النيران السوداء التي انطبعت على ما تبقى من الخزانة، لأنه فقد للتو دليله إلى مكان جزء كبير من كتبه، وحتى إحساس الانتماء إلى هذا الرف أو ذاك، لأن ذاكرته لم تعد قادرة

على العمل. كانت مأساة بالنسبة إليه، فرافقته في صمت مع بعض العبارات التشجيعية القليلة التي رفضها فورًا. وضع يديه فوق ركبتيه، فيما تبعثر شعره عند جانبَي جبهته، وانطفأت نظرته التي ظلت تحدق إلى إحدى ساقي خزانة الفهرس. لم أكن لأنتظر منه واجب الضيافة في وقت مثل هذا بالطبع، ولهذا بقيت برهة معه ثم رحلت مهمومًا فعلًا، لأن الحريق بالنسبة لأي محب للكتب يعني تحول حلمه إلى رماد، فهو شيء نعرفه، ويترصدنا، وحقيقي وقد يقضي على المرء إلى الأبد. نتعلم تفاديه وعدم الإتيان على ذكره أصلًا، بناء على فكرة أنه لن يحدث، ما دمنا لم نستدعه إلى أحاديثنا.

سارعت بسؤاله:

- ما الذي فعله لاحقًا؟

- حسنًا... قبل أن أحكي لك هذا، يتحتم عليك أن تُخبرني لماذا نتحدث عن كارلوس براور.

ثم أضاف ديلغادو بنبرة جافة تفهمتها على الفور:

- لو أن هذا لا يضايقك...

كان قد وصل إلى أقصى درجات لطفه وبدأ يشعر أنه يتعرض إلى الاستغلال.

- أتيت لأعيد كتابًا أرسله إلى زميلة توفيت قبل أن تتلقاه.

سألني باهتمام:

- ما اسمها؟

- بلوما لينون. عملت في قسم اللغات الهسبانية في جامعة كمبريدج. ماتت مؤخرًا بعد أن صدمتها سيارة.

نظر إليّ ديلغادو دهشًا. رأيته وهو يُعدل من وضعيته فوق المقعد كأن اسم بلوما يمنعه من العثور على مكان جديد يسند إليه جسده.

قال، وهو لا يزال متشككًا:

- رجاء، أجبني على هذا السؤال لمجرد السؤال: هل كانت تحمل كتابًا بين يديها؟

أنا من دُهشَ في هذه المرة. من أين انبثق هذا السؤال المستحيل؟ أومأت برأسي في صمت، فيما بدأ ديلغادو يشحب أمامي، كأنه صار عاجزًا عن الاقتناع بفكرة أنني موجود في مكاني هذا، وبمحادثتنا الطويلة عن غرائب رجل عازم على السفر بين الكتب. امتقع وجهه من إيماءتي، وتحرك في المقعد مرة ثانية. ثمة فكرة مزعجة سرت في جسده كله. قال: - ثمة شيء آخر. صدقني سأسأل عنه بشعور يقارب حد الخوف: هل من المحتمل أنه كان كتابًا لإيميلي ديكنسون؟

أومأت برأسي وأنا منزعج تمامًا. أفلتت منه ضحكة أعقبتها حازوقة وإذا به يصمت بعنف. بقيت من دون أن أفهم ما حدث.

- لا تفزع. أو ربما يتحتم علينا أن نفزع. أنا عاجز عن تصديق الأمر.

أجبته وأنا أتطلع إلى إجابته:

- هذا لسان حالي.

- هل أنت متحمس لسماع الحكاية؟ الأمر وما فيه أن كارلوس بعد الحريق باع بيته في النهاية ومنح زوجته المال الذي طلبته وسافر إلى المكسيك. إنها رحلة من عشرين أو ربما ثلاثين يومًا. لم يكن في خير حال. لو أردت، سأحكي لك الأمر لاحقًا، لكن بخصوص الإجابة التي تريدها مني، فدعني أقل لك إننا التقينا في يوم سبت، في معرض "تريستان ناراباخا"، حين عاد من تلك الرحلة وبدأنا نتحدث. قال لي إنه زار "إل غولفو" و"ميتشواكان" وأماكن أخرى يتذكر كونها استثنائية، وإنه قد شارك في مؤتمر للكُتاب في مونتيرّي، فسألته: "وكيف الحال؟ هل كانت الأمور طيبة؟" وانظر إلى ما قاله: "نوعًا ما. تعرفت إلى أستاذة إنجليزية، جميلة جدًا. هذا أفضل شيء. إنها واحدة من الأكاديميات المندفعات المزهوات بأنفسهن اللاتي يُزيّن كل شيء بالاقتباسات الأدبية، وإن حانت ساعة أجلهن، سيفضلن أن يمتن بعد أن تصدمهن سيارة وهن يقرأن لإيميلي ديكنسون".

لم أتمكن من كبح ابتسامة متوترة. ظللنا بضع دقائق ننظر بعضنا إلى بعض بدهشة كأننا ننتمي إلى حكاية خرافية بعد أن انطوى الواقع أمامنا بصورة لا ريب فيها. نهض ديلغادو وتوجه إلى المشرب الصغير ثم عاد ومعه زجاجة ويسكي ودلو ثلج وكوبان وقال: - هذه هي الطريقة الوحيدة لهضم الأمر.

بينما يصب الويسكي، تذكرت إهداء بلوما في الصفحات الأولى. لقد سخر شيء أو شخص ما من التهكم الذي أنهت به مغامرتها. لم يتمكن كارلوس براور من إدهاشها. هذا صحيح، لكنه أثبت حتى هذه اللحظة أنه ألعن من بلوما. ما هو مذهل، ليس أنها قد تصرفت بصورة متوقعة على الرغم من توقها إلى إثبات ذكائها، وإنما ذلك الرد الذي جاء من القدر والنصيب.

مع كل هذا، ظللت من دون أن أعرف ما الذي حدث مع براور ولماذا صار شخصًا يشق العثور عليه.

- ما الذي فعله لاحقًا؟

أجابني في النهاية بعد أن شجعه الشراب، لكن بنبرة لا يغلب عليها الطابع الاحتفالي: - باع بيته. افترضت، مثل البقية، أنه سيبقى في مونتفيديو، لكنه بعد رحلة المكسيك توقف عن الرد على كل من يقرع جرس بابه. أعتقد أنه قد فصله، بل وتوقف عن الرد على المكالمات الهاتفية. لو أن الذاكرة لم تخني، فإن آخر مرة قابلته فيها، كانت في ذلك الصباح في "تريستان نارباخا". بعد مرور بعض الوقت، جاء صديق وأخبرني أنه اشترى أرضًا في "لا بالوما" لا تصلها الكهرباء أو الماء، وبنى فوقها واحدًا من تلك الأكواخ المصنوعة من خشب شجر الكافور بسقف من أعواد الخص البري... كان غريبًا بالفعل أن يقدم شخص تتغلغل حياة المدينة حتى نخاعه على العيش إلى جوار البحر. ليست استعارة، إذ إنه بنى كوخه في الصف الأول من الساحل، بين بحيرة "لا روتشا" والمحيط. لا أعلم ما إذا كنت على دراية بطبيعة المكان. إنه قطاع ملآن بالكثبان المنعزلة المعرضة للرياح ومد البحر، حيث ثمة عشش فقيرة لصيادين يصطادون القريدس حين ينفتح الجرف الرملي في فبراير، وسمك السلور خلال بقية العام. لا يُمكن الوصول دائمًا بالسيارة إلى هذا المكان،

فأحيانًا يتحتم على المرء أن يصل بعربة تجرها حيوانات لأن الكثبان تتنقل وتغطي الطريق الذي يفضي إلى الساحل. ثمة طريق آخر في الأعلى، ومع ذلك، كي يصل المرء إلى حيث بنى كوخه، فلا بد من أن يقطع نحو مائتي أو ثلاثمائة متر فوق الرمل. ما أود قوله هو أنه مكان ناء، يقع إلى جوار نهاية العالم. لو أنك لست واثقًا من معنى حياتك وتريد أن تختبر الأمر أو أن تنسى تأملاتك وتتحول إلى إنسان آخر، فهذا هو المكان المنشود. إذا أردت أن تموت وحيدًا، أن تشعر بأنك كلب، أو أن تواجه نفسك، فيتحتم عليك أن تذهب إلى مكان مثل هذا؛ مكان من دون أنصاف حلول، أو مسكنات، أو إلهاءات، أو عزاء؛ مكان في الظل وموحش، وتصعب رؤية سماوات مثل سماواته في أي مكانه آخر، فهي شاسعة ليلًا ونهارًا إلى حد القمع، وقادرة على منحك الإحساس بأنك أكبر بمليمتر واحد فقط من أي حشرة تتوارى بين الرمال. أجهل ما الذي ذهب براور ليفعله هناك، لكنه حتمًا لم يكن بخير، أو أن حريق الفهرس كان قد قضى تمامًا على تطلعاته لترتيب مكتبته... الأمر ليس هينًا. أتمنى أن تفهمني. تخيل للحظة أنك تمكنت على مدار حياتك من الحفاظ على مجموعة من ذكريات طفولتك: المشاعر، والروائح، والضوء الذي التمع معه شعر أمك ومغامراتك الأولى في الحي. أقصد تلك الانطباعات شبه الفوضوية عن شيء لا يُمكن سبر أغواره، لكنه يشكل في نهاية المطاف ذكرى عن طفولتك، بفظائعها وأفراحها وأحاسيسها، وأنك من بعدها احتفظت أيضًا بسجل عن نموك: المدرسة، وأوامرها والمدرسين والزملاء، ومغامراتك الأولى، وأنك نجحت في مواصلة مراكمة الذكريات عن كل تجاربك وصولًا إلى الحاضر، لكن فجأة ذات يوم، إذا بك تفقد ترتيب كل هذه الذكريات. صحيح أنها لا تزال هناك، لكنك صرت عاجزًا عن العثور عليها، لأنك حين تبحث عن صورة زوجتك الأولى، سترى الرفش الذي عضه كلب في أرض قفر بعيدة من عالم طفولتك، وحين تبحث عن وجه أمك، ستجد وجه رجل كريه في مكتب حكومي مظلم. لقد انتهت قصته. فكرت كثيرًا في هذا الشأن، وأنا أحاول فهم ما فعله كارلوس. أسوأ شيء أن تكون كل الحقائق موجودة في انتظار أن يُعثر عليها، وألا يجد المرء إليها سبيلًا. لا يرتبط الأمر بالنسيان، الرحيم، الذي يُخفي ما لا يطيقه المرء، وإنما بالطبيعة المُغلقة لهذه الذكريات وكونها نداءً

مهووسًا يستحيل الرد عليه. لم يعد لديه أصلًا الفهرس القائم على السِّمات الذي ازدراه سعيًا وراء المنظومة الجديدة التي صحيح أنها أعقد، لكنها في الوقت نفسه أهش... الأمر وما فيه أنه ذهب إلى روتشا مع كتبه، عند ذلك القطاع الواقع بين البحيرة والبحر. إنها رحلة مكلفة، إذ تحتم أن تقطع الكتب مسافة تتخطى مائتي كيلومتر في عدة شواحن مغطاة، وأن تدخل بالطبع من الطريق الترابي، قبل أن تنقل فوق عربة تجرها الأحصنة فوق الأرض الرملية، وصولًا إلى المكان الذي انتصب فيه الكوخ المفتوح، الواقع تقريبًا على الشاطئ... ما الذي تظن أنه فعلها بها؟ اضطلع بالعثور على أحد البنائين، أقصد أحد أولئك البنائين العاطلين القادرين على العمل مع الخشب والأسمنت بذات الطريقة، وتركيب نافذة أو سقف من الخص المربوط بالأسلاك ودق البراغي السميكة كإصبع، والحفر من أجل الماء أو نحت الحجر، بنتائج لا يُمكن توقعها أو التأكد منها دائمًا. إنهم رجال لا يسألون ويفعلون ما يُطلب منهم، أيا كانت الطريقة، ما دام هناك مال، وما داموا لن يعيشوا هناك... لقد طلب كارلوس من البناء أن يغرس دعامات لهياكل النوافذ، ودعامات لبابين في الرمل، وأن يبني سورًا من الحجر، ومدخنة. حين انتصبت المدخنة عند جانب الكوخ، مع النوافذ والبابين، طلب منه أن يصب أرضًا أسمنتية، وأن يُحول كتبه -وحاول أن تفهم أن إحساسًا بالرعب يجتاحني حين أقولها لك- إلى آجر... الأمر هكذا، كما تسمعه مني: فيما تمازجت الشفقة واللا مبالاة في نظرة البناء، بدأ يختار من جبل الكتب، الملقى فوق العربة الواقفة على الرمال البيضاء النظيفة، النسخ التي يجب أن تحميه من الرياح والأمطار وقسوة الشتاء. لم يهتم بصداقة أو بعداوة المؤلفين، ولا صلاتهم المتشابهة أو تناقضاتهم؛ لم يهتم بسبينوزا أو علم نباتات الأمازون أو إنيادة فيرجل؛ أو بما إذا كانت المجلدات جيدة أم رديئة، أو ما إذا كانت تضم نقوشًا أم لوحات، أو ما إذا كانت غير متسقة الحواف أو من بواكير المطبوعات، وإنما فقط بحجم كل واحد منها، وسمكه وقدرة غلافه على تحمل مزيج الأسمنت والرمال. لا بد أن البنَّاء قد وضع مجلدًا موسوعيًا فوق زاوية إحدى الدعامات، وأحصى أجزاء المجموعة وصفّها بعضها وراء بعض مسترشدًا بخيط لنصب الجدار. لا يشق عليّ على الإطلاق تخيله وهو يقول:

"أليس أمرًا صالحًا؟ إنها غير متماثلة مثل الحجارة. لا، بل في الحقيقة، إنها أكثر تماثلًا من الحجارة، مثل الآجر تقريبًا. لا تقلق. هذا أمر ممتاز!"... أتخيل كارلوس وهو يجلس فوق مقعد، وسط جبال الكتب المتراكمة فوق العربة على شفير البحر، وهو يرتدي قبعة من القش ليحمي نفسه من شمس روتشا الغاضبة، فيما يضع يديه فوق ساقيه وهو منتبه إلى الضوضاء التي تصدر من مجرفة البناء كلما لامست كعوب كتبه التي تمتلئ هوامشها بإشارات غير مجدية كتبها بخط يده إلى كتب أخرى، وتعليقات عن قراءات لن يتمكن قط من مراجعاتها، أو مطالعاتها، أو إلقاء نظرة جديدة كاشفة عليها. لم أتخيله سعيدًا أو حزينًا، وإنما وهو مكره على الصمت من فعلته المتوحشة، ومحميًا بصفير البنّاء وصوت الراديو وانكسار أمواج المحيط ونعيق النوارس. فكرت في الأمر كثيرًا، لا بُد أنه تمشى هناك، فيما ينتصب الجدار وناول البنّاء كتابًا لبورخيس، لتغطية نعل النافذة، وآخر لباييخو ليُوضع إلى جوار الباب وكافكا فوقه، إلى جوار كانط مع نسخة متينة من "وداعًا للسلاح" لهيمينغواي؛ كورتاثار مع بارغاس يوسا، بنسخ كبيرة الحجم بالطبع، وباينكلان مع أرسطو، وكامو مع موروسولي، وشكسبير مع مارلو وذلك الملاط الأسمنتي يربط بينهما بصورة لا مناص منها؛ كل هؤلاء وهم مسخّرون لبناء الجدار وإلقاء الظل. "أظن أن كل هذا سيمنحك الدفء، أليس كذلك؟" لربما هتف العامل بهذه العبارة كي يرفع من معنوياته ويمحو تلك الإيماءة الصارمة من على وجهه الذي تيبس، كأن دلوًا من الملاط قد سقط فوقه، لأنه رأى مباشرة العزلة النهائية لهذه الكتب التي لن يفتحها أحد أو ينظر إليها برغبة، ولأنه لن يقول أمام أي زائر معجب: "حسنًا. لم أقرأها كلها. ترافقني منذ سنوات. انظر، لدي شيء أثق في أنه سيعجبك"... مع ذلك، لربما قال أيضًا: "لا تزال هذه الكتب أصدقائي. تمنحني المأوى والظل صيفًا وتحميني من الرياح. الكتب هي بيتي". لا يمكن لأحد أن يناقشه في هذه المسألة، حتى وإن كان الرابط بين الأمرين بدائيًا وانتهى به المطاف وهو مُلقى في شاطئ منعزل بسبب معاشرته لأكثر أبعاد الكتب حساسية. صفحة تلو الأخرى، وكتابًا تلو الآخر، وطبعة وراء الأخرى، فوق رمال لا روتشا، انتهى البنّاء في ظرف أسبوع، من رفع جدران هذا الكوخ التي كفّنت بالأسمنت عمل كارلوس براور.

عمل مدمر داخل عمل آخر؛ ذلك العمل الذي لم يُحبس فحسب، وإنما قد انمحق بفعل الأسمنت. علمت أنه عاش هناك فترة من الزمن وأن الورق المقوى والأوراق العادية والتجليد صارت بعد تلاحمها مع الملاط أقوى مما قد يتسع له خيال المرء. لم تكن هي ما يحمل بالطبع وزن السقف، الذي استند إلى دعامات خشب الكافور، وإنما كفاها أن تتحمل وزنها نفسه، وأن تبقى قائمة وتقاوم العراء. ربما رأيت ذات مرة كيف تتفتت كتل الأسمنت أو كيف ينكسر الآجر. ما أقصده أن المجلدات أثبتت أنها أمتن.

صمت ديلغادو ولم أتجرأ على مقاطعة صمته، وأنا دائخ من حكايته. كان واضحًا أن القصة تُشعره بالاختناق وأن تذكره إياها يؤلمه.

حسمت أمري في النهاية وقلت:

- أظن أن الكتاب الذي أرسله إلى بلوما جاء من هناك.

نظر إليّ مذهولًا، وعلى وجهه إيماءة حزن ورفض أثارت قلقي.

- لا تقل لي شيئًا. لا أريد أن أعرف.

تضاءلت عيناه الزرقاوان ونظر إلى ساعته، ثم طلب مني أن أغادر. تعهد بأن يستقبلني في اليوم التالي، لكنه قال لي أن أتصل به هاتفيًا لتأكيد الموعد، وخشيت من أن يمنعه عذر ما.

أربعة

على مر السنين، رأيت كتبًا مصيرها تثبيت ساق طاولة مكسورة، وعرفت ما صار منها مثل الكومود، وما تراصّ منها بعضه فوق بعض كبرج وفوقه خرقة، فيما استُخدمت قواميس عدة في الكي والكبس أكثر من المرات التي فُتحت فيها، وليس قليلًا عدد الكتب التي احتفظت داخلها وهي فوق الأرفف بخطابات ومال وأسرار مخفية. لهذا فالبشر قادرون أيضًا على تغيير مصير الكتب.

ينكسر الإبريق وتتعطل ماكينة القهوة أو التلفاز قبل أن يتلف الكتاب بكثير. لا يتلف، إلا أن أراد صاحبه أن يفعلها، حين يُمزق صفحاته ويشعل فيها النيران. اضطر قوم كثيرون خلال سنوات الديكتاتورية العسكرية الأرجنتينية الأخيرة إلى إحراق كتبهم في المراحيض والأحواض، بل ودفنوا مجموعاتهم في باحات بيوتهم، بعد أن صارت خطرة علانية. اختار الناس بينها وبين حياتهم ذاتها، فصاروا جلادين لأنفسهم.

الكتب التي دُرّست ونُوقشت لفترات طويلة؛ الكتب التي أيقظت عواطف والتزامات حاسمة؛ الكتب التي باعدت بين أصدقاء قدامى، صعدت كلها إلى السماء بعد أن صارت أرمدة متفحمة تتبدد وسط الهواء.

لم أتجرأ على الإقدام على هذه الفعلة، إذ لففت المجلات ووضعتها داخل أنبوب ستارة المرحاض وأخفيت أكثر الكتب إثارة للخوف في أبعد ركن في خزائن البيت، وفي الصف الخلفي للمكتبة، وأنا على دراية بأن أي مداهمة مفاجئة قد تكتشف مكانها. حينئذ، تسببت الكتب في توجيه تهم إلى قومٍ كثيرين ومزقت حياتهم.

لم تكن علاقة الإنسانية مع هذه الأغراض المتينة القادرة على أن تدوم قرنًا واثنين بل عشرين -وأن تنتصر على مجرى الزمن إن أرادت- بريئة قط، لكنها منحت رسالة إنسانية لهذه الألياف الخشبية اللينة التي لا تنكسر.

أنا في الأصل لست رجلًا مرتابًا ينظر دائمًا تحت مقعده، وإنما يروقني أن أسمح لمُحركي الدمى وتأثيرات المسرح الصغيرة والإيقاع المطبوع للكلمات بخداعي، غير أن "بيت الورق" الواقع على شاطئ بعيد، جعلني في النهاية حساسًا تجاه مسار الظل هذا؛ أو ذلك البعد الأعمى الذي جمع في لعبة عجيبة بين إرادة وجسد الحرف المطبوع.

لما عدت إلى كمبريدج، وضعت النسخة مرة ثانية فوق مسند القراءة الموجود في مكتبي، وعادت آليس لتضع الخرقة تحتها، بيد أن التراب كان قد توقف عن السقوط منها. تحتم عليّ أن أستعد في ظرف شهر من أجل المقابلة اللازمة لشغل منصب بلوما الرسمي، وصارت الدراسة عذرًا جيدًا لنسيان وجوده المتحدي الصامت.

لم أتجرأ على أن أحكي لأحد ما علمته في الجنوب، ولو أنني أكتبه الآن فمردُّ الأمر إلى أنني ما زلت أحاول أن أفهمه.

بينما أقرأ منذ يومين مقالًا كتبه جون لينون، الذي أزاح لوريل من محاضرات الدراسات العليا، لاحظت أن مصباح المكتب يقسم الكتاب الموضوع فوق مسند القراءة من منتصفه: ترك نصفه العلوي، حيث يظهر عنوانه، وسط الظلال، فيما أضاء القاعدة الرمادية الهشة التي تغطي الرسم. صار مستحيلًا أن أستأنف قراءتي وأن أتجاهل هذا النداء: أنا جزء من القدر وحب الاستطلاع وهذا الكتاب الذي عبر نصف الكرة الأرضية أربع مرات جزء من مصير محدّد.

نهضت من فوق المقعد، ووضعته داخل مظروف، ثم أدخلته في أحد الأدراج.

ذهبت مساء أمس لزيارة قبر بلوما التي دفنا رفاتها في مقبرة تقع في ضواحي المدينة. إنها مقبرة خضراء وذات طابع ساحر، على الرغم من صغرها. بينما أقود السيارة تحت الرذاذ الخفيف، شعرت بأنني رسول يحمل إخطارًا معدوم الجدوى. قادني رذاذ واجهة السيارة الزجاجية إلى ذكرى بيت كارلوس براور الواقع على الساحل بين البحيرة والبحر، في ذلك المساء الملآن بغيوم سوداء عمودية، ضخمة وثخينة، كأن كلًّا منها إعصار في حد ذاته.

ما حدث أن ديلغادو، كما تخيلت، تلافي لقائنا الثاني. اتصلت ببيته عدة مرات وتركت رسائل على مجيبه الآلي وحاولت ملاقاته في غرفة التجارة من دون أن أنجح في تجاوز الحد الودود لسكرتيرته. بدا لي سلوكه كريهًا، لكنه كان مفهومًا. لقد عجز مشتهي الكتب عن إكمال قصة براور من دون أن يشعر بصدمة رعب عميقة، لكن عطلتي كانت قد قاربت على الانتهاء وأردت أن أرى بعينيّ الموقع الذي جاء منه "مسار الظل".

استقللت حافلة من لا بالوما، من دون الاستعداد المطلوب. كان يونيو قد شارف على الانتهاء واستقبلتني القرية الخاوية غير المأهولة ظهرًا بمتاجرها المغلقة، وزوابع جلدت نخيل شوارعها، فبدت كأنها أنقاض من زمن قد محاه الطقس السيئ. كانت عدة أشجار صنوبر قد سقطت على طريق الدخول، ولم ترض الرياح إلا بخمش فروعها ودحرجتها وتمزيقها.

لم يكن أفضل يوم لزيارة هذا المنتجع، لكنه كان يومي وفرصتي الوحيدة. تمكنت، ولا أجهل كيف حدثت هذه المعجزة، من إقناع سيارة أجرة بتوصيلي إلى البحيرة، وهو الأمر الذي اضطررنا بسببه -كما أخبرني ديلغادو سلفًا- إلى أن نعود أدراجنا وأن نلتف عبر طريق ملآن بالحفر يشبه مجرى جدول قد جفت مياهه. أكد لي سائق الأجرة بنفسه أن طريق الساحل قد أصبح مسدودًا.

لم يشق عليّ التعرف على المكان، فبعد منحنى، فصل الدرب الحجري المستقيم البحيرة عن الكثبان الرملية الواقعة أمام البحر، تمكنت أن أرى من بعيد الكوخ المنعزل. ظهرت سهول إحدى المزارع، على الجانب الآخر، ومن ورائها اختفت الحقول تاركة المساحة لامتداد من الماء ضاع حدُّه الآخر في الأفق. فاض مدُّ البحيرة وأغرق صفًا من العشش المصنوعة من الصفيح والورق المقوى، وخاض في الماء أحصنة وكلاب، وصيادون بين شباك معلقة ومراكب شراعية وحيدة الصاري يهزها التيار. امتلأت نظراتهم بالدهشة من وجود سيارة الأجرة في الطريق، ثم عادوا إلى مهامّهم بذلك التكتم المتوتر الذي تعلمت التعرف عليه في ظرف أيام قليلة.

طلبت من سائق الأجرة أن ينتظرني ووصلت إلى الكوخ وأنا أضع منديلًا على وجهي لتخفيف صفعات هبات الرمال. حينئذٍ، رأيت امتداد المحيط الأشهب الشبق، بهيجانه وثورانه، وتكتلات اليود التي بدت كأنها تلعق الشاطئ قبل أن تتراكم في عناقيد طويلة تتقدم في صورة حد ثخين وعفن من الرغوة، فيما تخطف الرياح أجزاء منها وتُطيّرها مع رمال وقطع بلاستيك وأخشاب صغيرة. أبصرت نوارس قليلة تقف فوق أسود بحر ميتة، وهيكل الكوخ بعد أن أتلفته مياه الأمطار وهو مفكك فوق روافده، وبقايا الحطام التي لا تزال قائمة. لربما لم تتخيل بلوما شيئًا مثل هذا على الأرجح في شوارع مونتيرّي أو وهي تغوص في ملاءات الفندق، أو في قصائد إيميلي ديكنسون أو في أي كتاب آخر قرأته وكان حظه أفضل. ثمة أجزاء من جدران مائلة ملتوية وغليظة لمحت فيها من بين الأسمنت المتحجر أصدافًا صغيرة وآشنات داكنة أحرقتها وجففتها الشمس، وبعض الصفحات التي تلاصقت بفعل القذارة فصارت متيبسة كغضاريف الأسماك، بطباعة إما متلاشية أو يستحيل قراءتها. لمحت أيضًا كعب موسوعة، ورغوة بيضاء منتفخة فوق كتاب بغلاف ورقي ذي حواف مموجة ومشوهة.

عثرت على ويدوبرو ونيرودا وبارتولوميه دي لاس كاساس مبعثرين حول الأبواب والنوافذ وكتبهم شبه مدفونة في الرمال، وعلى لورانس وماروسا دي جورجيو ملتصقين بآجرة صلبة، وعلى بقايا كتاب لإيليوت وآخر للوركا، و"النهضة" لبوركهارت وهي مُرصعة بالحلزونات، وكتاب لبالبير يشق التعرف عليه ويغطيه القطران.

"عشرون ألف دولارًا". هكذا هتفت، فيما تهز الرياح من وراء رأسي قطعة خشب في السقف وتضربها في أحد الأعمدة. كانت كل الكتب هناك، وهي تالفة، فيما تحوطها الحجارة وتُكفنها طبقة سوداء من العفن يعجز المرء عن إزالتها، ويستحيل فتحها من دون أداة. عزمت على إدخال يديّ في أعماقها، فتحسست سطحًا صلبًا بدا حين نزعته كأنه فضلات مشوهة. انبثق كل كتاب من وسط الرمال، كأنه جثة مشؤومة. ها هو ذا الورق مع الكلمات والحبر الجاف وكعوب الكتب التي ثقبتها حشرات حفرت مئات من الممرات الصغيرة وفقًا لهواها بين الصفحات والفصول.

بينما أقرفص والمنديل معقود حول مؤخرة رقبتي، تخيلت للحظة أنني قد أجد إحدى الطبعات الأولى لكتب أرلت أو داريو، أو نسخة "إل كيخوتي" التي اعتاد براور أن يثمل معها وهو في بيته، لكن كل ما أخرجته هو قطع آجر غير متجانسة، تتمازج مع عظام كتب لجارسيا ماركيز، أو عجينة دبقة كانت في الأصل كتابًا للوبي دي بيغا، أو جلدًا متيبسًا كان في الأصل كتابًا لبلزاك.

نهضت فجأة وداخلي إحساس لا يُطاق بالفزع والغم. توقفت عن النبش. برز الأدب العالمي من بين الرمال بصرخته الباهتة. مع ذلك، كانت الكتب هناك، وظلت هناك، مُجلّدة ومحبوكة، بصفحاتها التي انحفرت فيها ممرات بينية أوسع من ممرات الموهبة، تحت قشور هشة أطلت من تحتها بقايا أغلفتها الأصلية كأعين، ومعها كعوبها التي بحثت عن الضوء قبل أن تندفن مرة ثانية وسط الرمال.

تركت الكتب ومضيت نحو الكوخ الذي اقتُلعت أبوابه ونوافذه، فبدت هياكلها الباقية المفتوحة على المشهد الطبيعي كلوحات متحركة مُفجِعة بلا أهواء أو خلفية، باستثناء أُطرها المفككة المستطيلة، والرياح تعوي بصفير موزون متقطع عبر خوص السقف المثقوب.

ظلت المدخنة الحجرية منتصبة بقوة، وظهر بعضٌ من بلاط الأرضية في عدة قطاعات لم تغطها الرمال. حينئذ، أغرتني فكرة إخراج نسخة "مسار الظل" وتركها فوق ركن الموقد إلى جوار الجثث الأخرى لهذه الرحلة التي ظل الشاطئ يلتهمها يومًا وراء الآخر؛ لأنه على الرغم من الأمل الثمل والعنيد للحروف التي وُضعت في ذلك القالب الذي ساهم في صنعه عمال مطابع وآلات كاتبة ومصممون وسكرتيرات ومفسرون وكتاب وعاملون في مجالات الحبر والتجليد ورسامون وكتاب توطئة ونقاد ذاكرة مثقفون، ما الورق إلا بقايا عضوية ستنهار في النهاية، كأشجار الصنوبر الموجودة على الطريق، بين فكي البحر، في عملية سقوط قوامها هو الصمت والدمار.

كان البحر المضطرب والهائج موجودًا هناك وبدت كل واحدة من أمواجه وهي تنكسر كأنها تنهش الشاطئ. كانت أسود البحر هي الأخرى موجودة، بأضلعها المفتوحة الدامية التي غاصت النوارس داخلها بمناقيرها، وسط

رائحة اليود التي تشبع بها الهواء، وزوابع الرمل، والجذوع الضخمة الملقاة على الشاطئ، عند نهاية هذه الرحلة التي لا يُمكن تصورها. أي أمر قد يفعله أي كتاب هناك سوى أن يُدفن وسط الرمال وأن يترك نفسه ليؤكل وسط العتمة، قبل أن تنبثق بقاياه فجأة، كحطام سفينة غارقة؟

لم أتجرأ على تركه. أبقيته معي في مواجهة الكفر والنفور لأنه حتى لو كان هذا هو المصير وليس أي مصير آخر ما ينتظرنا -أنا وهو وكل ما خرج ذات يوم من الزبد القذر للمحيط وتَخَيّل وجود إرادة له على هذه الأرض- فبإمكان هذا المصير أنه يُرجئ وصوله؛ وأيضًا لأن آخرين سينجحون حتمًا في إرجاء تسليم الكلمة، لو كانت اللعبة ترتكز فحسب على الإرجاء البطيء والممتد لهذا المصير. جلبته معي وأنا عائد كأنه طلسم، عانقته بما تبقى من إيماني المفزوع، وعلى مدار أيام ابتهجت من وجود هذا الشريد فوق طاولة مكتبتي وسخرت معه من كتبي الخدرة، عبر لوم سخيف يرتكز على أنها لا تعرف شيئًا عن الحياة سوى أرففها النظيفة، ودغدغة الزعّافة، والمكنسة التي تزيل التراب من فوقها، والنوم، وأداء وظيفتها بين الحين والآخر، بعزة نفس لم تتعرض قط إلى العنف أو قوى الطبيعة التي تظهر في صفحاتها.

تراجعت النشوة لاحقًا. أجريت عملية تنظيف جديدة ووضعت الكتب التي لم تبد لي نافعة ويُمكن الاستغناء عنها داخل صناديق من الورق المقوى وأنا أشعر بتهديد من شبح براور. أهديت عدة صناديق إلى طلابي وزملائي في سلك التدريس، مع إحساس بأنني أستعيد مساحات لتعليق لوحة أو مرآة، أو مجرد قطاع أبيض أملس على الجدار لا أبحث فيه عن شيء.

لكن ليلًا دهمتني الكوابيس، ووجدت نفسي مرة ثانية فوق الكثبان التي لم تنبثق منها كتب، وإنما أياد تجذبني من كاحليّ وتمنعني من التقدم بصراخ مستميت.

أبعدت استعداداتي للمقابلة التي تحتم عليّ خوضها لشغل منصب بلوما هذه الصورة عن رأسي. اضطررت إلى التنافس مع ثلاثة محاضرين لهم باع كبير، وحصلت في النهاية على منصب بلوما، مع أنني لم أعد أودّه. باغتتني أحيانًا رغبة مفاجئة ومهولة في أن أغدو بحارًا في ألاسكا، أو أن أغير دفة

مصيري وأعود إلى بوينس آيرس، وأن أنسى الكتب، لكنني بعدئذٍ اعتدت أن أقول لنفسي إنني واقع تحت تأثير قصة براور ولا يجب أن أترك نفسي تنقاد وراء إيحاء تعويذتها. لطالما تساءلت عن مكانه، وما إذا كان سعيدًا وهو بعيد عن كتبه، أو ما إذا كان بدأ يعمل في التجارة، أو ما إذا كان قد بدأ يبني من دون نية مسبقة، عبر حب الاستطلاع المتكرر، مكتبة جديدة.

مهما كان مصيره مُحيّرًا، فقد تحتم عليّ أن أستأنف مصيري الشخصي، وأن أحافظ على اتجاهي ومسعاي الذي حددته ألا وهو رسم خريطة للسرد الأمريكي اللاتيني في مروره عبر أوروبا كي يُكمل بشكل ما رحلة ذهاب بلوما. لكن تمثلت المشكلة الوحيدة في أن طموحي منذ التجربة التي عشتها في أوروغواي بدا محض غرور مقارنة برحلة الكتب بشحمها وورقها. تحول هذا الأمر إلى اكتشافي وقلقي.

تأملت الكتب وهي في واجهات عرض المكتبات، فيما تحوطها أضواء المصابيح وهي معروضة مثل الجواهر الملونة أو الدرر. صحيح أنني لم أكف عن قراءة عناوينها، لكنني لم أكفّ أيضًا عن قياس أحجامها وأبعادها بخبث متهكّم. فأين سيؤول كل هذا الألق وهذا الاحتفاء الاستثنائي من أغلفة وتجليد لو نهشها القدر هي الأخرى وأظهر لها ما تقدر عليه الرياح والنار والماء؟

وجدت نفسي في أيام قليلة أنظر إلى الكتب بتوجس. قاومت إغواء طاولات العروض، وأسوأ شيء أنني أرسلت الكتب التي تصل إلى مكتبي من دول بعيدة إلى مستودع المكتبة من دون أن أنظر إليها تقريبًا. أفزعتني احتمالية اهتمامي بأحدها وأخذه معي إلى البيت، لأضيف عنصرًا جديدًا إلى المستعمرة الضخمة التي التصقت بالجدران وتقدمت عبر الممرات.

إن كنت قد وضعت "مسار الظل" فوق مسند القراءة، حيث يُمكنني أن أراه يوميًا، فمرد الأمر إلى أن ثقتي في قوتي لتجنب انتكاسة قد انعدمت، لكن جاءت الليلة التي رأيت إضاءة المصباح وهي تقسمه، فقررت -سواء ارتبط الأمر بأن براور أصاب حين نسب إلى الورق القدرة على خلق الصلات أو أنني قد استعدت السيطرة على مشاعري- زيارة قبر بالوما.

أخذت الكتاب معي ووضعته على المقعد المجاور. أجبرني المطر الخفيف الذي تزايدت كثافته بمرور الوقت على إضاءة المصابيح وتذكر نقطة انطلاقي المضطربة. توقفت عند نزل لشراء سجائر وحين عدت إلى السيارة بقيت ربع ساعة ومحركها مطفأ أمام إحدى أشجار لسان العصفور، وسط الأزيز الرتيب للمسّاحات الأمامية وهي تمسح المطر وتتحرك بين هذا الجانب وذاك. لكن، هل كانت فعلتي ستغدو عادلة لجوزيف؟ هل تحتم على كتاب كونراد أيضًا أن يواري الثرى؟

"ورجاني مرة ثانية أن أتعهد له بألا أتركه في الأرض. تحليت بالحسم الكافي لكيلا أعده بشيء، لكن لاحقًا بدا لي مثل هذا الحسم إجرامًا، إذ إنني بالفعل كنت قد أخذت قرارًا". هذا ما قاله القبطان أمام البحار الذي ظل يهذي فوق فراش القمرة، وهو أسير لفزعه المعدي. شعرت بأنني أسمع في هذه الكلمات المطلب المضمر الذي أراده الكتاب مني، بشكل أو بآخر، منذ البداية[19].

مددت يدي نحو المفتاح وشغلت المحرك وعدت إلى الطريق. دخلت بعد بضعة كيلومترات إلى الطريق المؤدي إلى المقبرة. صففت السيارة إلى جوار شجرة دردار وسرت أنا والكتاب وسط صفوف القبور المحاطة بالجنائن التي بدت في نهاية المطاف كأنها كتب مغلقة، باستطالتها وتيبسها، كأن أحدًا لن ينجح في فتحها، وكل منها له قصته ويرغب في أن تلتهمه رطوبة الأرض.

تكفل المطر الوادع برفع خضرة أوراق الشجر وسواد شواهد قبور الراحلين. شق عليّ التعرف على المكان الذي رقد فيه رفات بلوما. رفعت ياقتَي معطفي لتخفيف شعوري بالبرد، ثم أرشدني أحد عمال المقبرة إلى المكان حيث ووري جثمانها في الثرى. حينئذٍ، وضعت الكتاب في منتصف قطعة الرخام المنعزلة الصماء.

بقيت برهة أمامه، فيما تتساقط القطرات فوق غلافه المتيبس الخشن، وهو ثابت تحت المطر كحاله وهو تحت الأسمنت، وفي رحلة عودته، لأن صيادي بحيرة لا روتشا حكوا لي، من دون أن يعرفوا، نهاية القصة.

"تخطى المكان كل ما عهده قبلئذٍ". هكذا بدأ الصيادان حكايتهما ونحن نجلس في صورة دائرة داخل العشة التي أغرقتها مياه وصل ارتفاعها إلى ربل سيقاننا.

ما حدث هو أن رغبة مفاجئة راودتني في الاقتراب من بيوت الصيادين، قبل أن أستقل سيارة الأجرة مرة ثانية، فيما أقول لنفسي إنني لن أحظى بفرصة ثانية للتحقق مما يعرفونه، لو رحلت. صفقت بيديّ وأنا في الطريق، فجاءت الكلاب وابتعدت الأحصنة، لكن لاحقًا ظهر رجلان من وراء جدار، وحين سألتهما عن الرجل الذي عاش في الكوخ طلبا مني أن أدخل بإيماءات وهتافات. لم يكن أمرًا سهلًا، فبعد بضع خطوات ظهر خط داكن من ماء البحيرة الفائض الذي جهلت مدى عمقه. مع ذلك، كانت الدعوة قوية إلى درجة أنني خلعت حذائي وجوربي، وشمّرت طرفَي بنطلوني وغامرت بالتقدم مئة خطوة خجولة ومترددة إلى أن وصلت إلى العشش وحذائي في يديّ.

شعرت بالدهشة من عيشهما في وسط الماء بمثل هذا الإذعان الهادئ، إلى درجة أنني لولا البرودة التي أحسست بها في كاحليّ، لتمكنت من تجاهل هذا الشعور. وضعا حواشي النوم فوق طاولتين مرتفعتين، فيما امتلأت واحدة أخرى بأدوات، وآنية مائدة وزجاجات وموقد يعمل بالغاز، وتدلت بقايا ممتلكاتهما البائسة من عقف معلقة فوق الجدران. أطل الباب المفتوح على البحيرة التي تماست مع أفق ملآن بالغيوم السوداء، فيما تجمعت أسراب من البط والنوارس وطيور الفلامينغو في الماء على بعد عدة أمتار قليلة، وراء الزوارق الراسية.

قالا لي إنهم تعلموا جميعًا التعايش مع "الرجل". اعتادا أن يرياه وهو يسير على الشاطئ وفي البحيرة، أو في نزهاته الطويلة التي قادته بعيدًا وعاد بعدها بعدة ساعات وهو يحمل أخشابًا كانت ملقاة في المياه وعظام أسود بحر وجيفًا وزجاجات ملونة. صنع بعض قطع الأثاث والأرفف من الخشب، فيما تدلت عظام أسود البحر مع هياكل نوارس وطيور أخرى داخل وخارج الكوخ من خيوط صنانير، وتصادمت فيما بينها في الأيام التي تهب فيها الريح لتُحدث جلبة. لم يعرفا كيف نام في ظل وجودها، أو لماذا علقها من

الأساس، ولكل هذه الأسباب لم يقترب منه أحد كثيرًا، ومنعت النساء أطفالهن من الإقدام على الأمر.

ذات مرة فحسب حدث أن ذهبت امرأة إليه لتطلب منه أن يُبعد عنها الحسد لأن بطنها كان منتفخًا وعلى وشك الانفجار، لكنها عادت محبطة وهي تقول إنه ساحر لا يتمتع بأي قدرات باستثناء القدرة على "إحداث الضرر" على الأرجح، ومن هنا ظل الكلُّ بعيدين عنه.

رأياه في بعض المرات تحت إفريز سقف بيته ومعه كتاب بين يديه من ضمن الكتب التي تبقت. اعتاد أن يتزود صيفًا بالمؤن من لا بالوما بشُحنة تصل إليه، أما شتاء فكان يصل إلى متجر أحد الصيادين لشراء الشراب والتبغ أو كيس من الطحين أو الشعيرية، كي يأكل. لم يتحدث كثيرًا ولم يتحاور الآخرون معه أكثر من المطلوب. لم يعرف أحد ما الذي يفعله أو ماهية مبتغاه.

كان قد مر صيف، ثم شتاء، فصيف آخر، وهو على هذه الحال. حين جاءت الحيتان في أغسطس في طريقها نحو الجنوب، قالا إن بعضًا منها قد تأخر قليلًا أمام الكوخ ورفع زعانفه الضخمة وونون أكثر من المعتاد، فجفل أغلب من يسكنون هذا النجع. علق حوت صغير عند ركام رملي، على بعد عدة أمتار من شفير البحر، فدخل عشرة رجال إلى الماء لتحريكه. استغرقوا فترة طويلة في فعلها، لكنه لم يقترب. ظل ينظر إليهم من الكوخ، وسط الجلبة الصادرة منه، وهو يقف منعزلًا وبلا حراك إلى أن عاد صغير الحوت إلى البحر.

لكنهما أكدا أنهما رأياه ذات صباح، بعد مرور عدة أشهر، وهو يضرب بمطرقة جدران الكوخ. ما لفت انتباههما أنها لم تبد عملية إصلاح، لأنه كان يضرب في ناحية لفترة، ثم ينتقل إلى الناحية الأخرى، ومن بعدها إلى الأعلى عند النافذة، ثم في الأسفل إلى جوار الباب. جاء إليهما ابن أحد الجيران، وهو الوحيد الذي تجرأ على "التحاور مع السيد"، بحكاية أخرجتهما من دهشتهما المبدئية وزجت بهما في دهشة أخرى أكبر، إذ قال: "إنه يبحث عن كتاب".

عرفا أن حجارة هذا الكوخ ليست من مواد البناء، وراهنا بدهشة وخزي لفترة من الزمن على أن الوقت الذي قد تدومه جدران هذا الرجل لن يطول.

ظل عامل البناء يحكي ويتباهى في الحانات أنه بنى بيتًا من الورق، لكن أحدًا لم يصدقه.

قال الصياد الأكبر سنًا والأكثر ميلًا للحديث:

- لكننا عرفنا أن الأمر صحيح، مع أننا لم نره.

اقتصر ما فعله الآخر، الذي ربما كان ابنه أو قريبه، على الإيماء برأسه وتحريك يديه بتوتر.

استأنف الآخر حديثه:

- يأتي سائحون كثيرون إلى هنا ويفعلون ما يحلو لهم. حسنًا، يتعامل كل منهم مع الأمور وفق قدراته، وهو فعلها عبر الكتب، وهذا كان مثارًا للدهشة، لكن الدهشة الأخرى، جاءت كما أخبرتك حين بدأ يصنع تلك الفتحات الهائلة في بيته. دعني أخبرك أنه ظل يثقب الجدران طيلة يومين، وقال الفتى إنه لم يعثر على الكتاب. لقد رأيت المكان بنفسك، كم كتابًا كان موجودًا هناك؟ الأمر وما فيه أن البيت في النهاية صار مثل المصفاة. بلغ عدد الحفر في كل حائط عشرة أو أكثر، في الأسفل والأعلى، وفي الجوانب إلى أن عثر على ما يبدو -كما يقول الفتى- على الكتاب المنشود. عثر عليه وذهب به إلى لا بالوما وأرسله بريديًا. لا يكذب الفتى لأنه ذهب معه... بعدئذٍ عاد هذا السيد ورأيناه يبدأ بنفسه في الإصلاح. اشترى كيسًا من الأسمنت، وأوصلت له عربة تتحرك بالجر الحجارة، لكن يا صديقي، بدا أنه لم تعد ثمة طريقة للنجاح، إذ سقطت الكتب هنا وهناك، فكان حين يضع كتابًا، إذا بالجدار يميل هناك، في الأسفل، وينبعج ويغدو على وشك الانهيار. ما الذي حدث للكتب الملتصقة في الأعلى؟ سقطت. لان وتحدب كل شيء وصار إصلاحه مستحيلًا. ظل طيلة يومين هكذا. زرت المكان، أليس كذلك؟ لم يبق شيء. لقد دمره بنفسه. رأينا الأمر من هنا، حين فعلها بالمطرقة، ودعني أقسم لك أنه كان شيئًا مؤسفًا، لأن كل الأمور كانت جيدة، إلى أن ظهرت مسألة الكتاب! ذات مساء رأيناه على الطريق ومعه حقيبة. نظر إلى الكوخ، بعد أن تفكك، ثم رفع ذراعه وأشار بيده، واستأنف مسيرته فجأة تحت الشمس ولم يعد بعدئذٍ.

بينما أودعهما بعد أن تجمدت قدماي وأنا أمسك بحذائي مرة ثانية في يدي، خطر لي أن أسألهما بصورة خرقاء، ما إذا كانا قد لاحظا شيئًا غريبًا في الأيام التي سبقت كل هذا. حينئذ اتسعت عينا الرجل العجوز وقال:

- غريب؟ الأمر كله كان غريبًا منذ بدايته، أليس كذلك؟ من ذا الذي يعرف ما كان يفعله هنا! أخبرتك سلفًا بأن أحدًا لم يُخالطه بسبب الخوف، باستثناء الفتى، فهو شجاع. قال إنه ليس ساحرًا وإنه يقرأ بصوت مرتفع أشياء لم يفهمها كثيرًا، لكنها بدت كالموسيقى. لم يعلم ما هي فائدة العظام. سأله ذات مرة، لكن السيد ابتسم، لكن بشيء من الحزن، ولم يقل له شيئًا.

سألته:

- هل يمكنني أن أرى الفتى؟

- إنه في أراتشانيا حيث يعمل مع عمه في مشروع.

قال الآخر فجأة:

- ثمة خطاب. جلب له الفتى خطابًا سلموه له في بالوما. جاء من إنجلترا.

أنهى عبارته هكذا، كأن الكلمة تخفي دليلًا على غموض وقلق سيظل مصاحبًا له حتى نهاية أيامه.

ظللت أفكر في هذه المعلومة أثناء رحلة عودتي الصعبة إلى البيت، والماء والوحل يغمران قدميّ هناك، واستمر تفكيري وأنا في سيارة الأجرة، وبعدئذٍ في الحافلة التي أعادتني إلى مونتفيديو، وفي القارب المزعنف الذي أوصلني إلى بوينس آيرس، وفي النهاية وأنا في طائرة العودة إلى لندن، بعد أن تعافيت من نزلة برد في بيت أمي. بالنسبة إليّ، مثلت هذه المعلومة دليلًا، وأنا أقف أمام قبر بلوما مساء أمس، حين رأيت الماء وهو ينساب فوق السطح الأسمنتي للكتاب وظهرت عبر أجزاء معينة تحت قشرته السفينة القديمة والأسماك التي تزين الغلاف، وبدت كأنها تتحرك بعد أن شجعتها رغبة سرية. لقد راسلته بلوما لمطالبته بهذه النسخة التي أهدتها إليه في مونتيرّي. عثرتُ على نسخة من رسالتها في حاسوبها في المكتب يوم عودتي، وقالت

فيها إن هذا الكتاب محوري كي تنهي أطروحتها عن كونراد. أنا متأكد من أنها لم تحتج إليه، لأنني لم أر أي شيء مدون في صفحاته، باستثناء الإهداء، ولم يكن ليشق عليها قط أن تشتري نسخة أخرى من أي مكتبة سواء بالإنجليزية أو بالإسبانية. يساورني شك يقول إن ثمة أمرًا آخر. ربما هو فضولها الساعي للتحقق من أمر ما: ليس فقط معرفة ما إذا كان ذلك الرجل البعيد الذي كرست له ليلة ملأى باللهاث والتيكيلا في أحد فنادق مونتيرّي يتذكرها، بل التحقق أيضًا مما إذا كان قادرًا على فعل شيء من أجلها.

بدأ الكتاب يكتسب هيئة لينة تحت المطر. بدا في نهاية المطاف كأنه قد اندعس فوق قطعة الرخام السوداء في عملية احتضار بطيئة وعذبة، مثل قارب يدخل أحد الموانئ في صمت. حينذاك، بدأت أتخيل كارلوس براور مرة ثانية والشك ينهشه، وهو يحاول تذكر في أي جدار أبيض مجصص قد استقر الكتاب، فيما يتحسس السطح الخشن، كأعمى، مع أمل أن تُذكره ولو رعشة من إصبعه بالمكان الذي قد يجده فيه ملتصقًا بكتاب آخر. شعرت به للحظة وهو يؤنب نفسه، لا على نسيانه، وإنما على تذكر أنه محبوس تحت الأسمنت في مكان ما، وبالمثل على رغبته في العثور عليه. هل فعل الأمر من أجلها، أم من أجله بعد أن فاض به الكيل من الوحدة أو ربما من سماع نداء الكتب الذي كتمته ضوضاء العظام المعلقة في وسط الرياح؟ أم أن مسوغ كل شيء هو الاحتياج الساذج -والراسخ في الوقت ذاته- لامرأة تصرخ طلبًا لمفاجأة؟ وأن هذا الطلب تحديدًا جاء نهاية لشيء لا بد أن ينتهي، أو قد انتهى بالفعل منذ فترة طويلة بالنسبة إليه، فشعر بأنه في حاجة إلى اتخاذ قرار لإثبات وقوعه، عبر الإمساك بالمطرقة والبدء في تحطيم عمله مرة أخرى، كأنه يتحرر هكذا من محبسه؟

لم يُفاجئ الكتاب بلوما، بوصوله المتأخر وسط المطر ولم يفدها بشيء.

لكن حدث أن رجلًا ما تمكن بقسوة وغم ويقين من اجتياز مسار ظله.

ودعت بلوما وحييت جوزيف العظيم حين بدأت صورة المركب الشراعي والأسماك تختفي، وعدت إلى بيتي.

انتهى

يسرّنا أن نُهدي إليكم هذا الكتاب/الرواية بصيغة نصّية حصريًا على قناتنا.

وندعوكم للانضمام إلى قناتنا عبر هذا الرابط لتنهلوا من إصداراتنا النصية السابقة، ولتكونوا أوّل من يتابع كل ما هو جديد من إصداراتنا النصّية الحصريّة القادمة.

https://t.me/xepub

*

القناة الاحتياطية:

https://t.me/xepub1

ملاحظات

[1 ←]

0 تعرف أيضًا باسم "نمور مومبراسيم" وهي مجموعة من روايات المغامرات التي كتبها المؤلف الإيطالي إيميليو سالغاري. (المترجم)

[←2]

() من أهم أعمال الكاتب الألماني هيرمان هيسه. (المترجم)

[←3]

() مدينة مكسيكية. (المترجم)

[←4]

0 المقصودان هما الكاتبان الأرجنتينيان ريكاردو بيغليا وخوان خوسيه ساير. (المترجم)

[←5]

() أحد أنواع القوارب السريعة المستخدمة في نهر لا بلاتا ويتميز بأن قاعه يرتفع عن سطح الماء حين ينطلق بسرعة، فيما يلامس السطح من الجانبين شيء يشبه الأجنحة أو الزعانف.
(المترجم)

[← 6]

() مسقط رأس الكاتب الأوروغواياني الكبير أوراثيو كيروغا. (المترجم)

[← 7]

() المقصودان هما ريكاردو غويرالديس وهو كاتب وشاعر أرجنتيني (١٨٨٦-١٩٢٧)، وناشره فرانثيسكو أ. كولومبو. (المترجم)

[←8]

() المقصودون هم خوان خوسيه كاريرا وخوسيه ميغيل كاريرا ولويس كاريرا اللذين لعبوا دورا محوريًا في استقلال تشيلي. (المترجم)

[←9]

0 المقصود هو الشاعر التشيلي الكبير بابلو نيرودا. (المترجم)

[←10]

() رسام برازيلي من أصل فرنسي أقام في بوينوس آيرس في ١٨٥٥ وسافر منها إلى تشيلي أوروغواي أكثر من مرة، إلى أن عاد إلى فرنسا في ١٨٦٦. اشتهر بلوحاته التي رسمها عن الريف الأرجنتيني. (المترجم)

[← 11]

() المقصود هو البحار والرسام الإنجليزي إيمريك إيسيكس فيدال الذي يُنسب إليه الفضل في رسم اللوحات الأولى عن الحياة العامة في بوينوس آيرس ومونتفيديو. (المترجم)

[←12]

() موسوعة إسبانية شاملة عن تاريخ الفن حررها وأشرف عليها كل من خوسيه بيخوان ومانويل بارتولوميه كوسيّو. (المترجم)

[←13]

() فرانثيسكو دي كيبيدو: أحد أهم كتاب وشعراء القرن الذهبي الإسباني. (المترجم)

[←14]

() أبو بكر ابن قزمان: أحد أشهر شعراء الزجل في الأندلس. وُلد في قرطبة وتوفي فيها خلال عهد المرابطين. (المترجم)

[←15]

0 دار نشر إسبانية تأسست عام ١٩٤٤. (المترجم)

[←16]

() لوبي دي بيغا: أحد أهم الشعراء وكتاب المسرح الإسبان وجمعته خصومة قوية مع فرانثيسكو كيبيدو. (المترجم)

[←17]

0 مؤرخ وكاتب أوروغواياني. (المترجم)

[←18]

() واحدة من أشهر روايات أونوريه دي بلزاك. (المترجم)

[←19]

() المقصود هنا أحد المشاهد الواردة في رواية "مسار الظل". (المترجم)